طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

*

ذكرت في مقال سابق نظرية « تونيس » في (الجماعة) و (المجتمع) وفي الارادة الطبيعية والارادة الاختيارية . وأريد الآن ان اتمم البحث في ذلك مع ابحاث اخرى متعلقة بالموضوع عامة ، وبالانسلاخ خاصة . ويجدر بي هنا ان اشير باديء الامر الى ان الحالة التي وصل اليها الانسان في العالم الغربي من ثورة على المجتمع عند المفكرين والفهماء كانت نتيجة لعاملين : الاول عامل فقدان الثقة بالتقدم والمدنية ، والثاني تأثير الثورة الصناعية ونظام التبادل التجاري في المعيشة الاجتماعية . فقد كان الانسان في الغرب يؤمن بالعلم ايمانا وثيقا ، ولا سيما بعد القرن السابع عشر ، ويعتقد اعتقادا جازما بان هذا العلم سيوفر له جميع وسائط الرفاهية ويمكنه من السيطرة على الطبيعة وعلى محيطه سيطرة تامة . واخذ المفكرون يرون في تقدم العلم فرصة سانحة لايجاد عالم سعيد كان الكتاب والفلاسفة يحلمون به حلما . ولكن الحرب العالمية الاولى وما الحقته من دمار وتقتيل بفعل ما توصل اليه العلم الحديث من مخترعات فتاكة مهلكة ، بدون ان يكون في نفوس زعماء الامم ما يردعهم عن هذه الموبقات ، خلقت في الاذهان رد فعل شديد ضد هذا التقدم وهذه المدنية . واخذ المفكرون على العكس من المفكرين السابقين ، يرون في هذه الحالة الجديدة موطن هلاك وفناء للعالم المتمدن . وخرج امثال شبنكلر ينادون بالتشاؤم بمستقبل العالم الغربي ، ونفروا من هذا التقدم وراوه فيها تقدما نحو فناء الانسان او انحطاطه . ثم لما جاءت الحرب العالمية الثانية ، وكانت اشد فتكا من الاولى ، تقوت هذه العقيدة التشاؤمية في نفوس المفكرين ، وظهرت الفكرة الوجودية باجلى مظاهرها في كتابات « سارتر » الفرنسي بصورة خاصة ، وكانت هذه الفكرة رد فعل شديد ضد هذه المدنية الوحشية ، تدعو الى ان يهرب الانسان من محيطه وان يهتم بنفسه . ولم تكن الوجودية من صنع سارتر في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية ولا من صنع المفكرين الفرنسيين في الحي اللاتيني في باريس ، ولكنها كانت ، كما قيل ، هدية من المانيا المغلوبة الى فرنسا الغالبة في الحرب العالمية الاولى ، بل كانت في الحقيقة اقدم من ذلك . فقد نشأ في المانيا بعد الحرب العالمية الاولى مفكرون متشائمون دعوا الى فكرة الوجودية وكان على راسهم الفيلسوف العظيم «كارل ياسبرز » . وتبعه فيلسوف وجودي آخر هو « مارتن هايدكر » كان له اكبر الاثر في فلسفة «سارتر» الوجودية، حتى انه يقال ان فلسفة سارتر هذه ما هي الا تكييف وتحوير لافكار « هايدكر » . ولم تنحصر الفكرة الوجودية في فترة ما بين الحربين العالميتين في المانيا وفرنسا وحدهما، بل كانت موجودة في اسبانيا قبل الثورة الاسبانية على يد الفيلسوف الاجتماعي « اورتيكا اي كاست » وفي ايطاليا على يد « جوفاني جنتيلي » وعلى يدي « نيقولاي بردياييف» و « ليو تشتستوف » الروسيين .

فخيبة الامل في المدنية الحديثة ادت الى هذه الافكار التشاؤمية وامثالها . اما العامل الثاني وهو تأثير الثورة الصناعية ونظام التبادل التجاري في المعيشة الاجتماعية فقد ادى ، كما قلنا في مقال سابق ، الى تفكك الروابط بين افراد المجتمع وادى ايضا الى الشعور بالغربة والوحشة ، وهو الشعور الذي سميناه بالانسلاخ او التجافي . وهذا التفكك في المجتمع الغربي يرجع في اول امره الى القرن السابع عشر ، ثم استفحل امره تدريجا حتى وصل الى ما هو عليه الآن . ويسر هذا التفكك ، كما يقول « تونيس » و « ريزمان » ان الناس اخذوا يتحللون من تقاليدهم وروابطهم الاجتماعية القديمة ، بل انهم انتقلوا من طور كانت افكارهم ومشاعرهم الداخلية هي التي تسيرهم الى طور اصبحوا فيه يسيرون بعوامل خارجة عن انفسهم تسوقهم رغما عنهم بدون ان يكون لهم قدرة على مقاومتها. ويجدر بي ان أشير هنا الى شيء تطوري من هذا القبيل اشار اليه في الولايات المتحدة الفيلسوف « جورج سمل » (١٨٥٨ ــ ١٩١٣) . فقد نبه هذا الفيلسوف الى ان كل مدنية تنطوي على نزاع بين المعيشة والقوالب التي تصير اليها هذه المعيشة . وتفسير ذلك ان الفكرة ، بعد ان تكون مجردة ، تتخذ قالبا خاصا بها حينما تطبق على شكل نظام اجتماعي . والقالب ، الذي كان في اصله فكرة مجردة ، يصبح عند التطبيق الفعلي قائما بذاته ، يصبح مع تراخي الزمان منفصلا عن الاصل ، بل ان القالب يصبح هو الاصل وتصبح الفكرة الاصلية هي الفرع . والامثلة على ذلك كثيرة . لناخذ مثلا (الروتين) الاداري في الدوائر الحكومية ، فان هذا الروتين كان في الاصل عند وضعه وسيلة لتسهيل العمل ، فلما ترسخ واصبحت له قواعد ونظم خاصة انقلب الى سلطة قوية يخضع لها كل موظف ولا يحيد عنها قيد انملة ، فكانها احكام منزلة لا تجوز مخالفتها ، ولا يجوز استعمال العقل والمنطق بشانها . والمحاكم القضائية هي من هذا القبيل . فان هذه المحاكم اوجدت في الاصل بقصد احقاق الحق لا غير . ولكنها حينما تأسست ووضعت لها انظمتها وشكلياتها وصار لها كيان معقد ، طغت هذه الانظمة والشكليات على الغاية الاولى ، وصارت القضايا في هذه المحاكم تقرر على اساس الشكليات ، بحيث ان القضية احيانا قد تبوء بالخسران اذا لم تستوف شكلياتها ولو ان الحق معها . ومن ذلك ايضا ان النظام الديمقراطي النيابي

لم يبق على حالته الاولى من البساطة وقربه من الغاية الاصلية ، كما كان عند العرب في دار الندوة او عند اليونان القدماء ، بل تعقد وتشابك ، وجاء البرلمان او المجلس النيابي بانظمته الانتخابية المتشعبة وقواعده في الجلسات والمناقشات ، حتى اصبح غاية لا واسطة ، واصبحت الحياة البرلمانية صنعة قائمة بذاتها يطلق عليها احيانا اسم الصنعة البرلمانية . حتى ان العبادات الدينية ، في راي « سمل » ، قد تصبح قالبا قائما بذاته وتنسى الغاية الاساسية من هذه العبادات . واذكر انني اشرت الى ذلك في مقال سابق .

وثمة شيء آخر له علاقة بهذا الموضوع ، وهو الصلة بين (العارف) و (المعروف) . فان العلم النظامي القائم على التجربة والمشاهدة لا يسمح للعارف بان يتداخل في تفسير الظواهر الطبيعية عن طريق ميوله وعواطفه الشخصية الخاصة ، ويحض على أن يبتعد الباحث ما امكنه عن نفسه حتى لا تكون نتيجة البحث متأثرة بالعوامل النفسية ، بل تكون موضوعية مجردة من تأثير هذه العوامل . وقد اشتد هذا الاتجاه الى ان وصل الى ذروته في فلسفة «اوغست كونت» الفرنسي (١٧٩٨ ــ ١٨٥٧) ، ثم تبع ذلك رد فعل عند « برغسون » الفرنسي (١٨٥٩ ــ ١٩٤١) و « هسرل » الالماني (١٨٥٩ ــ ١٩٣٨) وعند أرباب الفلسفة العملية مثل « بيرس » و « وليم جيمس » الامريكيين . وامتد الشك في فائدة التحقيقات العلمية المجردة الى الشك في صحة احكام العقل نفسه ، بتأثير فلسفة « باركلي » الانكليزي (١٦٥٨ ــ ١٧٥٣) في اول الامر وفلسفة « كانت » الالماني (١٧٢٤ ــ ١٨٠٤) من بعده ثم بتأثير « فرويد » (١٨٥٦ ــ ١٩٤٠) النمساوي . ونشأ من كل ذلك ثورة على العلم النظامي من حيث انه يوسع الشقة بين (العارف) و (المعروف) ويجعل الانسان كالآلة المسجلة التي لا عمل لها الا ضبط المشاهدات والوقائع بصورة اوتوماتيكية مجردة عن الشعور والحياة ، ونشأ ايضا من ذلك كله ثورة على الفكر والمفكرين ، وعلى العلم النظامي نفسه الذي اوجد ، على الرغم من فوائده للانسان ، وسائط كثيرة يهدد بها الانسان بالدمار والهلاك ، في الوقت الحاضر . وانضم الى زمرة الناقمين على الفكر جماعة الوجوديين ، وفي مقدمتهم « هايدكر » ، الذين فسروا هذه النقمة وشرحوا اسبابها وتكلموا عن وجود الانسان غريبا في مجتمعه الغربي الحاضر . ويقول « هايدكر » ان الانسان في الوقت الحاضر يعيش بلا مأوى ، ويعيش ايضا غريبا عن نفسه ، فلا بد له ، اذا اراد ان يسترجع نفسه ، من ان يعود الى الاشياء ويتصل اتصالا وثيقا بالحياة الملموسة وينخرط في معتركها ، والمعنى الذي يرمي اليه « هايدكر » هو ان معيشة الانسان اصبحت بعيدة عن الاحتكاك بالاشياء كما هي ، لان هذا الانسان لا يعيش كما عاش الانسان الطبيعي : فهو لا ينام على الارض ، ولا يأكل بيديه ، ولا يقطف الاثمار بنفسه من الشجر ليأكلها ، ولا يسافر على قدميه ، ولا يستعمل النقد ، كالذهب والفضة وغيرهما ، في مبيعاته ومشترياته ، ولا يخيط ملابسه ، ولا يأكل الا في المقاهي والمطاعم ، واكثر ما يملكه عبارة عن اسهم في شركات قد تكون بعيدة آلاف الاميال عنه او حسابات في البنوك تتمثل بارقام ومجموعات حسابية ، ويقضي اكثر اوقاته في النوادي والمطاعم والفنادق ولا يأوي الى بيته ، ان أوى اليه ، الا للنوم ، ولا يخاطب الناس وجها لوجه بل بالمراسلة والتلفون ، ويفضل السفر بالطائرات للسرعة وتقريب المسافات ، ولا يقيم في بلدته او قريته اكثر الاوقات بل ينتقل الى مدن او الى بلاد اخرى ، ولا يكتب بيده بل بالآلة الكاتبة أو بالاملاء ، على سكرتيرته او سكرتيره ، ولا يحارب بالايدي او بالسيوف وجها لوجه بل بالبنادق او بالصواريخ من امكنة بعيدة ـ هذه الظروف جميعها وغيرها قد وسعت الهوة بين الانسان ومحيطه ، فلا عجب اذا وجد الانسان نفسه غريبا في هذا المحيط . ومما زاد الامر أستفحالا ان الشكوك قد تسربت الى حقيقة هذا العالم المادي ، لان العلم الحديث قد اثبت أن الشيء الجامد كما نحسه ونراه ليس جامدا في الحقيقة بل هو عبارة عن ذرات متباعدة تسير في الخلاء ، بل ان هذه الذرات ليست الا شحنات من الطاقة ليس لها جرم نقدر ان نسميه مادة بالمعنى المعروف . وتطرق الشك كذلك الى صحة ما يتوصل اليه العلم من النتائج لان هذه النتائج مبنية على مشاهدات الانسان واختباراته وهذه بدورها قائمة على حكم الحواس . ولكن الحواس لا ترينا ولا تشعرنا بالحقيقة ، كما يتبين احيانا من رؤيتنا لقضيب مغموس نصفه في الماء ، فان هذا القضيب يرى معوجا ، او كما يتبين احيانا من اختلاف درجة الحرارة لشيء ما اذا لمسناه وكانت يدنا بارده أو كانت ساخنة ، او كما نتصور وجود اشياء تحت تأثير الوهم لا يتصورها غيرنا اذا لم يكن تحت هذا التأثير . وتفسير العقل للظواهر الطبيعية لا يكون تفسيرا صحيحا يطابق الحقيقة بذاتها اذا كان هذا التفسير معتمدا على الانسان وعلى مشاهداته واختباراته وحدها لان هذه المشاهدات والاختبارات عرضة للخطأ بسبب خطأ الحواس.

فما هو المقياس الذي يجب ان نتخذه ونعتمد عليه للوصول الى الحقيقة ؟ وهل الاشياء التي نراها ونحس بها موجودة خارج العقل حقيقة ، أم ان العقل بحسب تركيبه الفسيولوجي يصور لنا حقيقة غير الحقيقة الاصلية كرؤية القضيب في الماء ؟ واذا كان تفكيرنا يؤدي بنا الى خيالات ليست حقيقية ، فكيف يصح لنا ان نعتمد على هذا التفكير؟ وهل نتخذ الرياضيات ، كما يريد « ديكارت » الفرنسي ، معيارا نحكم به على صحة استنتاجاتنا ؟ وهل الحقيقة نسبية ، تختلف باختلاف الاشخاص ؟ وهل نعتبر الشيء حقيقيا اذا وافق الغرض وخدم المصلحة كما يقول اصحاب الفلسفة العملية ؟ وهل للاشياء وجود في حد ذاتها ام انها موجودة في الذهن فقط ؟ هذه الاسئلة وغيرها لم تزل

قبل الضحى

الطرف كم ابدى وكم شرحا
فضح الهوى ما بيننا فضحا
ان التعقل في الهيام خرافة
لا نصح فيه خاب من نصحا
كم ليلة قضيتها في متعة
للفجر حتى ديكه صدحا ...
هي ليلة كل الليالي دونها
هي فرصة .. وبها الهوى سنحا
والليل كم حضن الهوى في جنحه
لولاه .. كان الحب مفتضحا ...
نام الحبيب على يدي متنعما
قبلته .. عند الضحى فصحا ...
ومضى وخلى القلب ينهشه الاسى
من بعد ما قلبي به فرحا ...

زحلة رياض معلوف

موضع النزاع والجدل حتى الآن منذ ان وضع افلاطون نظريته المثالية وفرّق بين عالم الفكر وعالم الواقع . ولعل افلاطون بفلسفته هذه هو السبب الاصلي في هذا التخبط الفلسفي . ولكن النتيجة التي وصل اليها العقل الغربي في هذه المتاهة الفكرية هي فقدان الطمأنينة والثقة بالعقل، والاعتقاد بان الحقيقة في هذا يكون لا وجود لها . حتى ان العلم النظامي نفسه يؤمن الآن بانه لا وجود لشيء اسمه يقين تام ولا لشيء اسمه دقة وضبط . وما القوانين العلمية الطبيعية الا تقريبات ، بعيدة عن ان تكون قوانين مطلقة ، وانها اشبه ما تكون بالمتوسط الحسابي لكميات عديدة ، فان كل كمية منها تكون قريبة في قليل او كثير من هذا المتوسط ولكنها لا تكون اياه .

فهل الانسان ، حتى في حياته العلمية ، يعيش في عالم غير حقيقي ؟ وهو اذا اعتقد ذلك ، فماذا يعمل ؟ هل يرجع الى الدين ويؤمن بوجود قوة روحية غير القوى الطبيعية المجهولة الحقيقة ؟ ام يرجع الى نفسه التي هو منها واليها فيؤمن بوجودها وحدها ، ويترك ما يقوله العلماء عن هذا العالم الخارج عن نفسه ؟ ام انه يقبل بما تعطيه اياه حواسه من صورة عن هذا العالم ، ويصرف النظر عما دون ذلك من الصور التي وراء الطبيعة ؟ وهل يثق بعقله وحده ام يثق بالروحيات فقط ؟ — هذه الاسئلة وغيرها من هذا القبيل هي التي تتنازع الانسان في الغرب منذ زمن بعيد ، ولا تزال حتى الآن بدون حل موثوق به . ومصدر هذه الحيرة الفكرية جميعها طبيعة الشك التي انطبع عليها العقل في الغرب منذ زمان بعيد . فقد كانت الفلسفة اليونانية في اول عهدها مادية ثم صارت مثالية روحية ثم انقلبت الى فلسفة شكية انكارية . ولكن ظل العقل ميزانا للافكار وحده . ثم جاءت القرون الوسطى في اوروبا وسيطر فيها النقل دون العقل ، ثم جرت محاولات للتوفيق بين الشيئين وانتهت بالفشل ، وجاءت النهضة والاصلاح الديني وتحرر الانسان من السلطان المدني والسلطان الديني . وفي القرن السابع عشر تقدم العلم فآمن المفكرون به وعكفوا عليه دون نظر الى شيء آخر . وجاء العصر الثامن عشر فاتسع نطاق التفكير العقلي واصبح العقل مقياسا لكل شيء ، وعرف هذا العصر بعصر العقل . ولكن طبيعة التشكك في كل شيء حملت الفلاسفة على الشك حتى في العقل . وجاء الفيلسوف « كانت » فهدم سلطان العقل المجرد ، وهدم بذلك آخر معقل للفكر البشري . ووقف الانسان حائرا لا يدري على اي شيء يعتمد ولا باي شيء يثق . ولكنه اراد ان يجد لنفسه سلطانا ما يركن اليه بدلا من العقل المجرد ، فانقسمت الفلسفة في القرن التاسع عشر الى شقين : احدهما مثالي روحي والآخر يقيني مادي . وارتفعت هذه المثالية الجديدة بافكارها فوق العقل ، وانحطت اليقينية الجديدة بالفكر الى ما دون العقل واعتمدت الوقائع الطبيعية المجردة . ونادت المثالية بفكرة تحرر العقل تحررا مطلقا ، ونادت اليقينية بخضوع العقل للطبيعة . وحلقت الاولى في عالم الخيال ، وغاصت الثانية في عالم المادة . اما الانسان فقد وجد نفسه معلقا بين الطرفين ، وصار يتنازعه عاملان : عامل الانطلاق والتحرر من كل قيد ، وعامل الانصياع والاذعان . ووجد انه اصبح فوق الانسان ودون الانسان في الوقت نفسه . ومن هنا كانت الازمة الفكرية التي ورثها هذا القرن ، وجاءت الجدلية على ايدي اتباع « هيكل » والالهامية على يد « برغسون » فاضعفتا قوة المثالية واليقينية ، وعادت الفلسفة الى ما كانت عليه من التخبط والحيرة .

وجد الانسان الغربي نفسه في هذه الغمرة من التخبط وعدم الاستقرار النفساني في القرن العشرين ، ووجد انه بعد ان طلق سلطان الدين من جهة وسلطان العقل من جهة اخرى اصبح في ازمة روحية عنيفة . وسيطر عليه الخوف من جميع الجهات على مصيره في الحاضر وفي المستقبل . ولو انه بقي متمسكا بتقاليده لالتجأ اليها ، او انه بقي مؤمنا بالعقل لانصاع اليه ، او انه بقي مرتاحا الى التقدم العلمي لركن اليه ، او انه بقي متصلا بمحيطه اتصالا وثيقا لم ينسلخ عنه لاوى اليه . ولكنه وجد نفسه كما لو انه في يوم القيامة ، وقد انهار من حوله كل شيء . فلم يبق له الا ان يهتم بنفسه حتى ينجو . في هذه الحالة الفكرية العصيبة وفي هذه الازمة النفسية المطبقة نشأت فكرة الوجودية .

لندن حسن الكرمي



عبد العزيز جادو

هل تعرف نفسك ؟

بقلم عبد العزيز جادو

ان اكثر الناس يعرفون عن الآخرين اكثر مما يعرفون عن انفسهم . وانهم ليستطيعون ، بقدر معقول من الدقة ، ان يلمسوا نقط القوة والضعف في اصدقائهم . ولكنهم مع ذلك لم يحاولوا اطلاقا تحليل ما فيهم من نقص وقصور وعجز وامكانيات .

والرجل العادي يعرف عن سيارته اكثر مما يعرف عن نفسه . فهو اذا وجد ان سيارته لا تسير كما يجب يشرع فورا في دراستها ليعرف السبب ويصلحه . اما اذا كانت الآلة البشرية لا تؤدي عملها كما يجب ولا تقوم بوظيفتها كما ينبغي فاللوم هنا يقع كله على الدهر او الزمن او الحظ او البخت او القسمة والنصيب او الوراثة او البيئة ومن ثم يكون الاستسلام والاذعان للامر الواقع . مع ان اسباب سوء الصحة والاخفاق والتعاسة والعجز ـ كحقيقة واقعة ـ يمكن معرفتها والتغلب عليها كسبب اختلال السيارة سواء بسواء .

وهناك باعثان رئيسيان ترجع اليهما معرفتنا القليلة جدا عن انفسنا . الباعث الاول هو حيرتنا الشديدة امام تعقيد الشخصية وحذقها في تضليلنا والاحتيال علينا ، وتفاعلها مع عوامل كثيرة منها : الوراثة ، والعاطفة ، والتحيز وتأثيرات تجارب الطفولة ، وغيرها مما يبدو وكأنه واجب ممقوت او فرض كريه لا امل منه في ريادة او استكشاف هذه الاعماق السحيقة فنحن نجفل مرتاعين من عظم الاتساع الذي يواجهنا ومن عدم القدرة على الاضطلاع بالامور الكبيرة فنقف موقف ملاحي خريستوف كولومبس حين اجفلوا من امتداد اليم الفسيح ، المجهول ، اللانهائي . .

خوفنا من انفسنا

والباعث الثاني هو اننا نخاف من نتائج التقدير الصادق ، ونسيء الظن « بالتقييم » الصريح . فالانسان الذي قد يتاح لنا ان نلقاه او نصادفه ـ هذا المخلوق الذي هو انا ـ ربما يكون مختلفا في الحقيقة عن المخلوق الوهمي الذي اوجدناه وابدعناه في مخيلتنا يصدم زهونا وغرورنا ويستثير مشاكل النظام او التأديب التي نؤثر عدم مواجهتها .

وهذا الشخص الوهمي ، الذي ليس له كيان او وجود ، والذي نطابق به انفسنا ونثبت به شخصيتنا له في الغالب بعض المشاركة مع الذات الحقيقية التي نستهين بها ونزدريها ونخشى معرفتها . بل ان اكثرنا لا يمكن ان يميز او يتحقق من نفسه اذا التقى في الطريق بذاته الحقيقية او اذا لبى دعوة من نفسه لتناول طعام الغداء حيث يدور خلاله حديث ودي .

اسباب اخفاقنا

ان هذا الشخص الزائف ، غير الحقيقي ، الذي يقوم مقام الذات ان هو الا تحقيق لرغبة طفلية . اذ يشعر الفرد باحساس بالنقص وشعور بالدونية فيشرع في رسم شخصية خيالية خالية من الخطأ ، معصومة من الضعف ، وايجاد او خلق هذا الشخص الوهمي لا يعالج باية حال مركب النقص وانما يعوضه عنه بعض الشيء ويهيء له سبيل الهرب من الواقع المليء بالفشل والنفور ، والشقاق والكراهية والمرض والضعف وغير ذلك من صفات يمكن ان يقع اللوم فيها كلها على عوامل اقوى خارجية ، او حوادث عريضة . وهذا الشخص الخيالي الذي نعرفه كما نعرف انفسنا لا ينبغي ان نلومه ! يا له من مسكين ! لقد اسيء فهمه . . والناس لا يعرفون قيمته ولا يقدرونه حق قدره . . انه سيء الحظ دائما ، والعالم كله ضده ! . . مع انه لو امكن ان يمزق هذا الوهم او هذا الشيء المسربل بالوهم وعاد الى الذات الحقيقية ، لوجد ان كل هذه الاسباب كائنة فيه وكلها يمكن علاجها .

وهذه الحالات الخارجية كلها ان هي الا تجسيم لذاتنا اي انها تجعل للشيء جسما وتجعله مرئيا لنفسنا الذاتية . فنحن الذين نخلق حظنا . ونحن الذين نبني عالمنا . وشهرتنا او خمولنا ، سعادتنا او تعاستنا ، نجاحنا او رفاهيتنا او اخفاقنا وقصورنا ، كل هذا في ايدينا نحن . . انها ليست نتاج الحظ او البخت او المصادفة ، وليست احكاما لارادة مقدسة ، وانما هي نتاج قانون مقدس ـ هو قانون العلة والمعلول ـ والعلة يجب ان يبحث عنها فيك انت ! . .

ان هذا لمبدأ قاس عسير . ولكنه في الحق مبدأ اصيل ،

قويم ، سليم ، لا مطعن فيه !.. فمن الاشياء المرغوب فيها والتي لا تخلو من اللذة والبهجة ان نلوم شخصا آخر ، ولكن هذا لا يوصلنا الى شيء ولا نكسب منه اي شيء . فاذا نحن كشفنا عن الاسباب او العلل التي فينا وحددنا مكانها وعينا موقعها ثم صححنا هذه الحالات وقومناها فسنحصل على نتائج باهرة .

ان الآخرين لا يدرون شيئا عن هذه النفس الوهمية . انهم يرون النفس التي لا ندري عنها شيئا . انهم ربما يخفقون في رؤية امكانياتنا واهليتنا وما خفي فينا من سمو وعظمة ، ولكنهم على علم ودراية تامة باخطائنا وضعفنا وغرائزنا وشذوذنا وخواصنا الظاهرية .

وانت اذا كنت تملك عملا وكنت تجد انه لا يسير وفقا لما ينبغي او كنت ترى انه لا يبشر بالخير كما كنت تؤمل ، فانك لا تتوانى عن تحليله كي تكشف موضع الخطأ والخطل فيه . فلماذا اذن لا تحلل نفسك ؟..

ان اول فائدة لمثل هذا التحليل هو ان الفرد يعرف تماما مكانه في الوجود ، على وجه البسيطة . فيجب ان يسأل نفسه دائما : لماذا يكون وجودي في الخليقة ؟ هل انا مجرد شاغل لمكان شاغر في موقف « الاوتوبيس » ، او هل لحياتي مبرر او مسوغ ؟ ما برنامجي وما طريقة تحصيلي وهدفي في الحياة ؟ وتجاه هذا الهدف هل حققت تقدما حقيقيا في خلال فترة معينة في الاثني عشرة شهرا الاخيرة مثلا ؟ واذا لم يكن ذلك ، فما الذي وقف في طريقي ؟..

ان كل حياة يجب ان يكون لها هدف معين ، محدد . والعالم مليء بالمنساقين مع التيار على غير هدى . انهم يدلفون الى الحياة بحالة يائسة تستحق الرثاء . لياليهم لا تتردد فيها اغنية العمل الفذ الذي يرضي النفس. هم راضون قانعون بأن يملأوا فراغ يومهم بالاستمتاع بساعة نزوة طائشة ، ما دام لديهم المكان الذي يثوبون اليه ، وينامون فيه . انهم مجرد حيوانات تساق الى حيث لا تدري .. يحيون حياة لا معنى لها ولا طعم ، دون ما هدف يستهدفونه او غرض يقصدونه .. انهم كالسفينة تتقاذفها التيارات وتعصف بها الانواء ، دون ان يكون لها قائد او ربان .. ليس لهم مرفأ يهتدون اليه ، او ملجأ يلجأون اليه ، او بصيص من امل ينير لهم الطريق السوي .. ليس لهم نهج او هدف او ارادة تقودهم او تدفعهم بعيدا عن التيارات المناوئة التي تعترض طريقهم ــ وتهديهم الى الممر الذي يقود الى مرفأ الامان والسلامة والاطمئنان .

هل لحياتك هدف ؟

يجب ان يكون لحياتك تصميم هندسي . ويجب ان يكون العمل والدراسة واللعب في كل يوم من ايامك موجها الى تحقيق هذا النموذج الذي رسمته لنفسك ، فتغدو الحياة ذات غرض وذات نفع . ويغرينا الهدف فيجتذبنا الى احسن واعظم الجهود ، ويستحثنا على الجليل من الاعمال ويثير فينا الهمة الباسلة والعزيمة الصادقة التي تليق بكل بطل شجاع .

هل تعرف نفسك ؟.. ما منهاجك ؟.. وما هو التقدم او النجاح الذي حققته في سباقك او جهادك في الوصول الى الهدف ؟.. واذا لم تكن حققت نجاحا ، فما السبب؟.. ان تحليلك لنفسك سيساعدك في الاجابة على هذه الاسئلة التي لها اهمية اساسية في توجيه حياتك توجيها سليما لائقا ، وفي تنظيم ميولك واهتماماتك ونشاطك اليومي تنظيما سديدا ..

وثمةفائدة عظيمة اخرىللتحليل النفسي هي انه يساعدنا على اظهار اخطائنا ، ويكشف لنا عن موطن الضعف فينا..

اي نوع من انواع الناس انا حين اظل مستمرا في خداع نفسي ، واقف « ساخرا مستهزئا بنفسي ؟ » واذا امطنا اللثام عن ومض الحقيقة الساطع فما أكثر النقائص والعيوب ظهورا ووضوحا ؟ وما الذي يجعلني ادفع الناس عني بدلا من ان اجتذبهم الي واستميلهم لي ؟ ولماذا اخفق في حين اني خلقت لانجح ؟.. ولماذا اراني تعسا ، شقيا ، غير موفق في حين انه يجب ان اكون سعيدا ، ناجحا ، موفقا ؟..

فلننظر مليا الى بعض الاخطاء الشائعة التي نعاني منها الكثير ، والتي قد تكون السبب في اخفاقنا وتعاستنا ونحن في غفلة عنها او غير منتبهين اليها :

اول هذه الاخطاء هي الانانية وحب الذات . وهؤلاء الذين يعانون من الشعور بالنقص او الدونية يهمهم جدا ــ من باب التعويض ــ ان يعلقوا اهمية على الذاتية ، فتجدهم في حديثك معهم يتكلمون بحماس عن انفسهم ، عما يحبون وما لا يحبون، وعن تجاربهم واصدقائهم واعدائهم وانجازاتهم . واذا غيرت الحديث وحولته بعيدا عن ذاتيتهم تجدهم بكما لا ينطقون ، صما لا يسمعون . وتجدهم دائما يسرفون في استعمال الضمير الشخصي : « انا فعلت هذا، انا عملت ذاك ، انا قلت هذا ، انا احب هذا ، وغير ذلك مما يثقل على الاذن سماعه » ..

ان من يصطلي بشمس الملق الذاتي ، انما يصطلي وحده. اما الرجل الذي يكسب الاصدقاء ويحقق تقدما ويحرز نجاحا فهو الشخص الذي يبدو عليه من سماته كأنه غافل عن نفسه غير منتبه اليها . ويوطن النفس على الاهتمام بصدق وشوق الى الآخرين . انه يجيد الاصغاء ويحترم آراء الاخرين وافكارهم . ويعظم الكبير ويقدره ، ويعطف على الصغير ويسانده . وهو يسعى جهده ليخدم ويساعد

---

(١) التركازية : تعبير فلسفي معناه (التركيز على الذات او الانا) وهي تفعال من (ركز) . (٢) الاستبطان : الفحص عن باطن الشيء . (٣) العصابي : المريض باختلال الاعصاب .

ويعاون ، ويتحدث بخير عن الآخرين . فهو على العموم محبوب من الجميع .

دع حياتك تفيض الى الخارج

تجنب التركازية (١) اي لا تكن انانيا . وحاول ان تعرف نفسك وتفهم مقدار قوتك ومدى ضعفك .. ثم دع الحياة تنساب منك الى من حواليك . ولا تكن مستبطنا (٢) . ولا تقف ما ليس لك به علم .. ابن عالما من الميول الرحيبة والاهتمامات الفسيحة ، والرغبات العريضة .. انشيء مع الآخرين علاقات طيبة تنطوي على الاخاء والحب والمودة . واسع الى مد يد المساعدة والعون الى كل محتاج . وجاهد في ان تجعل الدنيا من حولك اكثر رقة واكثر لطفا واكثر آدمية ، لتغدو اكثر جمالا مما كنت تراها ..

والانفعالية او اثارة الاحساسات والعواطف من الاخطاء الانسانية المتفشية بيننا ، فنحن بدلا من ان نقتنع بالعدول عن احد المواقف ، نميل الى المقاومة بطريقة عاطفية ، لا عقلية .. ونحن محكومون ايضا بارائنا المبتسرة واهوائنا ومخاوفنا ومشاعرنا السلبية .. اما العواطف الحقيقية ، السليمة ، التي لا زيف فيها ، واما الحب والتآلف والعطف والحنان والابتهاج ، وتقدير الجمال ، والاقرار بالفضل وعرفان الجميل — فهي من مباهج الحياة ، بل هي شذى الحياة وعرفها الفواح . وحتى هذه الصفات ايضا تحتاج الى ان تتخلق وتمتزج وتتجاوب مع الادراك والحكم والذوق السليم . واما الانفعالات السلبية ، والخوف والقلق والحسد والغيرة والبغض والاكتئاب — فهي تسمم ينابيع الحياة وتؤدي الى الشقاء والبؤس والفاقة والمرض والاخفاق ..

والتعب ضعف آخر عند كثير من الناس . فنحن كثيرا ما نتسرع في الحكم على الآخرين وادانتهم حتى في تلك الاخطاء التي نقع نحن انفسنا في ارتكاب معظمها .

والثرثرة والشائعات الكاذبة لا تنتشر ولا تشيع الا عن طريق نفوس مريضة الى نفوس اخرى اعياها السقم والتفاهة وجمع بينها التشابه في الاذواق .. والثرثرة نوع من انواع التعويض . فنحن اذا علمنا بضعفنا ومرض انفسنا نبادر في السعي الى هدم الآخرين بالحكم الخاطيء المؤذي سواء بالقول او بالفعل حتى يمكننا ان نغسل نفوسنا الاثيمة في فيض دافق من الشعور بالراحة وبالتهنئة الذاتية . هذا الشعور الذي يجب ان يجعلنا نشعر على الاقل بان همسنا الفاجر المشين وهمساتنا الخسيسة قد ووريت في التراب واندثرت في الرغام .

وتأكد ان النمام او الواشي او كاشف المساويء انما هو متعصب للخطأ الذي يقتص به من الآخرين . بل انه عصابي (٣) مسكين ، عليل ، يعاني رغبات مكبوتة .

فاذا كنت احد تلك النسور او الكواسر الآدمية التي تقع على الجيف ، فكن قاسيا اشد القسوة مع نفسك . واقلع عن هذه العادة المرذولة . اقطع الحديث وقف في نصف الجملة وغيّر الموضوع . واذا انت لم تستطع التحدث جيدا عن شخص غائب فتحاش الكلام كلية . ولا تسيء الى الآخرين بالتحدث عنهم بالسوء فتلطخ سمعتك وتلوث شخصيتك وتجرد نفسك من الآدمية ومن كل الخصال الحميدة ، ومن المثل السامية ، وتهبط بنفسك الى مستوى الشخص الذي تذمه وتستقبحه .

تجنب ذلك النوع الوبائي الضار وهو عدم التسامح الذي يقودك الى الشعور بانك قد جعلت من نفسك رقيبا على عادات الآخرين وافكارهم وآدابهم وسلوكهم وتصرفهم .

دع الآخرين يعيشون على ضوء ذاتهم وفي جوهم الخاص .. حسبما يشاءون . وكن في نفسك فلديك من الاعمال والشؤون ما فيه الكفاية لتوجيه حياتك . وبقدر ما يتأهل الشخص الآخر مثله العليا ، تستأهلها انت ايضا . ومن الغباء وعدم الذوق ان تحاول اكراه الآخرين على احترام آرائك او ان تفرض عليهم صفاتك وتصرفاتك او معتقداتك .

لنعش ونترك سوانا يعيش لتطول اعمارنا وتكون ايامنا موصولة ببريق الرقة واللطف ورائحة الحلم والاناة الذكية ، وعطر التسامح والسماحة .

ابحث عن ذاتك الفضلى

ان هذا التقدير الذاتي الذي استحثك عليه ، وهذا التقييم الصحيح للنفس والرفع من شانها يخدم غرضا آخر ذا اهمية .. انه لا يكشف عن اخطائنا التي نسعى جهدنا الى تصحيحها واصلاحها فحسب ، ولكنه يكشف ايضا عن الامكانيات المغمورة للنفس والروح من اجل حياة ارحب واخصب واكثر وفرة واعظم سعادة .

ان في ذاتنا الخفية لقوى يمكنها ان ترفعنا الى اسمى مراتب التحصيل .. وانه لترقد في ذواتنا اللاشعورية مخازن واسعة ومستودعات غنية بالكنوز الذهبية والذخائر النفيسة . فاذا نحن استطعنا ان نبلغ هذا الحد من الكمال في الحياة وابرزناه او حولناه الى تعبير عن النصر والظفر امكننا ان نصل صعدا الى المجد ونرتفع الى حياة خصبة رغـدة .

ان الصحة والسعادة والشهرة والقوة والانجاز والعمل الفذ والنجاح والانتصار — يمكن ان تكون لنا وملكنا — فبذور هذه الاحتمالات والامكانيات موجودة في طويتنا .. في ذات انفسنا . فلنبحث جادين عن هذه الذات العليا ونتوجه بها منطلقين تجاه الحقول الخضراء ، والحدائق الغناء ، والمروج الفيحاء .. الى قمم الوجود المشمسة المتوجة هاماتها باكاليل الغار والانتصار .

الاسكندرية — عبد العزيز جادو

في ذكرى الشريف الرضي

الدكتور عبدو مسوح

مراشف الغيد كأسي ايها الساقي … وقربهن على الادواء ترياقي
فامرر ولا تسقني خمرا معتقة … خمري العناقيد من الحاظ احداق
هي العيون .. وحسبي انني ثمل … احس سورتها تسري بأعماقي
لولا هواها لما غنيت قافية … على حنين من الانغام رقراق
كأنها جمعت من كل جارحة … فقد وجدت بها حبي واشواقي
وكم رنوت الى امواج ناظرها … فهام في زورق الاحلام خفاقي

بنت الشواطىء (١) انت الثغر نلثمه … عند الصلاة وانت الحارز الواقي
وانت عين بلادي .. انت مهجتها … انت التسابيح في أفواه عشاق
تبارك الله اذ سواك ملحمة … لكل صب رهيف الحس ذواق
هذي البلابل قد جاءتك منشدة … تمجد السحر في لمسات خلاق
وكم تمايل اغصان مفوفة … تقبل النور اعناقا بأعناق
وللنسيم احاديث يبث بها … وجد الصبابة في اعطاف مشتاق
وللغواني اذا ما ملن من طرب … دل الغصون بأعناب واوراق
هذي مغاني فؤادي قد عرفت بها … يا قلب مهوى مجالاتي وآفاقي

عفو الرضي (٢) اذا ما هزني طرب … وقد ذكرت صباباتي واشواقي
انا الموكل بالاهداب احرسها … لا غرو أن غرقت بالدمع آماقي

مرابع الانس .. والايام مسرعة … تطوي منانا .. الا سقيا لارماق ؟
ايـن المواعيد نرعاها بمهجتنا … مرت كحلم من الاحلام الآق
نحن الوفيون ما خنا احبتنا … يوما من العمر او كنا بمرآق

يا اشعر الناس غنى وجده وبكى … رعيا لعهد وتذكارا لميثاق
ومن اعار الى العشاق ادمعه (٣) … هذي عيوني اهرق ماءها الباقي
لعلها تطفىء النيران في كبد … حرى ونفس حبيب ذات اشفاق
وَرَوّ « غورا (٤) » ودارا في بطاح « منى » … من مدمع كمياه النهر دفاق
وقفا جعلت عيوني لا اضن بها … على كريم ثوى بالكرخ (٥) غيداق
واليوم ان تسأل الاجداث قد درست … يجبك صوت باجلال واطراق
ماذا انتظارك في الكثبان تسألها … الست تبصر أطباقا بأطباق ؟
مرت عليها عوادي الدهر ماحية (٦) … واسلمتها الى صيحات نعّاق
ويح الرياح .. ففي الاضلاع مرقدهم … وقد تجلوا لنا آيات اشراق :
في بسمة الصبح .. في اشفاع مقلته … في نفحة العطر تروي طيب اعراق
في دفقة الماء تروي حقل قريتنا … وتنشر الجمر في اعناب اعذاق
في ذروة الجبل المرهوب يحرسه … يوم المفاخر منا كل سباق
في روعة البحر والامواج هادرة … عزت متون شواطيها على الراقي

في السمهريات ان صاحت مزغردة … يوم الوغى بين لبّات واطواق
في السابحات وقد ادمت حوافرها … جماجم القوم من تحطيم سمحاق
في ثورة الحق قاد الزحف « صالحها (٧) » … في فتية من سيوف العرب حذاق
اذا تنادوا الى الهيجا حسبتهم … خطف الوميض على وجنات براق
وللدماء على اعلى ترائبهم … وهج اللآليء في ياقوت اعلاق

يا يوم « نيحا (٨) » وقد سارت جحافلنا … هدير سيل من الفرسان دقاق
« وشيخ بدر (٩) » وفي «صهيون(١٠)» اذ اطلعت … كتائب الموت في انياب اشداق
خضننا المعارك والاوداء ظامئة … تستمطر الهام في ضربات ذلاّق
حتى اتينا ربى « سلمى (١١) » نطمئنها … ان ليس للعلج في « القدموس (١٢) » من راق

هات « ابن هاني (١٣) » حدّث عن مفاخرنا … الى سماعك اني جدّ تواق
ماذا تسر لك الامواج هامسة … عن « راس شمرا ترى (١٤) » ام فعل عملاق ؟
أم الاولى ركبوا الابحار تعضدهم … روح البطولة لا نزوات افاق
هم علّموا الحرف حبا في عطائهم … وبددوا الجهل اكبارا لاخلاق
هم الاساطين نحيي اليوم ذكرهم … عسى نزحزح من ظلماء ارواق

شطآن قومي ما احلى عرائسها … عشقتها رغم تسهيدي وايراقي
احييت دفين اشتياق كاد يقتلني … وكم خيال لها في الحلم طرّاق
قال الرفاق : اليها .. قلت : والهفي … انا المحب وها رحلي واعناقي
ان كان غيري يرجو الدهر يعتقه … فلست ارجو بدنيا الحب اعتاقي

غاب « الفرلّق (١٥) » هل بعد السماء على ؟ … وهل لشمسك من صد وافراق ؟
ويا نسيم نعيم في دنى « كسب (١٦) » … انا العليل فخفف بعض ارهاقي
ويا « صلنفة (١٧) » كم داويت افئدة … بعذب ماء حكى معسول ارياق
لك السحائب نحدوها محملة … بالعطر والراح تشكو عبء اوساق
بها طيوب من « الميماس (١٨) » نفحتها … يعلها كل اصباح واغباق

حمص

عبدو مسوح

---

(١) اللاذقية . (٢) اي الشريف الرضي . (٣) وابك عني فطالما كنت من قبل اعير الدموع للعشاق (الشريف الرضي) . (٤) « الخيف والنقا والمصلى والغور ومنى » اماكن ردد الشريف الرضي ذكرها في شعره كثيرا . (٥) توفي هذا الشاعر الشريف في بغداد يوم الاحد في السادس من محرم ، وقيل صفر . ودفن في داره بخط مسجد الانباريين بالكرخ . ثم نقل رفاته الى مشهد الحسين بكربلاء . فدفن عند ابيه . الفيداق : الكريم . (٦) وما لبثت داره ان خربت ودرس قبره . (٧) صالح العلي.. قائد معظم الاعمال الثورية التي قامت على الساحل السوري . بدأ جهاده ضد الفرنسيين منذ أوائل عام ١٩١٩ حتى نهاية عام ١٩٢١ . أثبت انه قائد عسكري ناجح . نظم ثورته أحسن تنظيم وابعدها عن الغايات المادية . (٨) قرية « نيحا » غربي وادي العيون . دارت فيها معارك قاسية بين كتيبة مشاة كاملة مدعومة بالمدفعية من الفرنسيين وبين جماعة الشيخ صالح العلي . كانت نتيجتها انسحاب القوة الفرنسية . (٩) كانت حملة الفرنسيين الثانية على « الشيخ بدر » بتاريخ ٢ شباط ١٩١٩ وقد صد الوطنيون هذه الحملة . (١٠) منطقة جبل صهيون . هاجم المواطنون الحامية الفرنسية في مخفر (بابنا) . وقد استبسلوا بالهجوم على هذا المخفر لمدة اسبوع كامل حيث وصل القتال بينهم الى حد الالتحام عدة مرات . (١١) بعد معركة (بابنا) بقليل حدثت معركة قرية « سلمى » . وقد كانت الغلبة فيها للوطنيين . (١٢) في ٣ آذار ١٩٢٠ زحف رجال الشيخ تجاه بلدة القدموس وطوقوا حاميتها لعدة ايام مما اضطر الحامية للتسليم . وكان لاحتلال القدموس اهمية كبرى لانها كانت الجيب الوحيد الموجود للفرنسيين داخل جبال العلويين (استقينا هذه المعلومات عن المعارك من كتاب « ثورات الحق ولقاء الاحرار » دار التحرير العربي .. دمشق) . (١٣) رأس ابن هاني . وهو قرب اللاذقية . (١٤) تل « رأس شمرا » او « اوغاريت » تبعد مسافة ١١ كيلومترا الى الشمال من مدينة اللاذقية . فيها ولدت اول ابجدية في التاريخ . يرقى عهدها الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ثم توزعت في العالم لتصبح فيما بعد اساسا للحضارات . (١٥) (١٦) (١٧) اماكن اصطياف قرب اللاذقية غنية بصنوبرها وارزها وسنديانها وعلوها الشاهق ومناظرها الخلابة . (١٨) متنزه على العاصي في مدينة حمص .

لست ادري ماذا اصابني .. كان شيئا تمزق في داخلي .. أطبق على خناقي . غرفتي تكاد تضيق بي .. يبدو انها صغيرة جدا .. لم اكن ادري ذلك من قبل .. احس اني اختنق .. واهرع الى النافذة .. النافذة الوحيدة فيها .. السماء بدات تنفض رذاذا .. واتنشق طويلا .. طويلا .. تشعبت رئتي برائحة تراب بلل .. توقف المطر قليلا .. ها هو يعود .. عجيب امرها سماء بغداد هذا العام .. لاول مرة يستمر فيها تساقط الامطار الى هذا الشهر .. لكأني بها تلعب مناورة معي ..

كسل يدب في مفاصلي .. وقشعريرة حمى تسري الى اطرافي .. واتوجه نحو الروزنامة واعد : — خميس .. جمعة .. سبت ، احد .. ها هو اسبوعي الاول يمر .. الشوق يعلو صراخه في أعماقي .. لكني سأخرسه .. منذ متى اكون صريعة شوق ! انك تتهربين .. لا داعي لهذا فقد تنسينني يوما .. سانساه يوما .. كم هو ساذج .. لا يدري ان حبه جرثومة تشعبت في عروقي .. سرت في دمائي .. استقرت تحت الجلد .. ستنسينني يوما .. وهل انسى ان للارض فلكا تدور حوله ..! الساعة الحادية عشر .. رنين التلفون ثانية .. لا .. لا .. لن اذهب .. لا يمكن لآلة صغيرة تافهة أن تستعبدني .. اعرف كيف اروض أرادتي .. سأسحقها ان كانت لا تريد ان تحميني تحمي عيني من التطلع الى دربه .. تحمي يدي من القبض على سماعة التلفون .. تحمي اصابعها من ادارة قرصه اللعين .. واتوجه الى الباب اتأكد من انه مغلق .. ثم أرتمي على سريري .. وادفن راسي تحت الوسادة حتى ينتهي الرنين .. يبدو ان امي ردت عليه .. ارتخاء سرى في جسدي . واغلق التلفون .. اشعر كمن انتهى لتوه من معركة .. هذا يومي الثامن سأصمد حتى النهاية ، والا ستكون نهاية بحق .. لا اريد حبا كهذا يدمرني .. يسحقني حتى العظم .. عاصفة تهب والريح تصفر .. اصطفق الزجاج وتبعثرت بعض الاوراق في ارجاء الغرفة .. الهواء الرطب يريحني .. مددت ذراعي اتناول كتابا بجانب راسي .. ديوان شعر .. فتحت صفحته الاولى : — مطر .. مطر .. مطر .. بين يدي اسطر فيها مطر ، وفي الشارع ينهمر المطر .. وفي أعماقي مطر .. وانهض واغلق الكتاب بانفعال وارميه على الارض ، فتزحلق واستقر تحت الدولاب : — السياب وامطاره .. فليذهبان الى الجحيم .. يبدو ان كل شيء يعاكسني . اغلقت النافذة واسدلت الستارة فساد الغرفة ظلام



بقلم سهيلة داود سلمان

ثم أشعلت زر المصباح .. وعدت استلقي على فراشي .

حذر يسري في مفاصلي وافكار متسللة تلح علي .. تتوالى في ذهني كشريط سينمائي .. اول لقاء لي به كان في يوم مطير .. خرجت مع من خرج من قاعة الشعب اثر انتهاء ندوة ادبية عقدت هناك .. الساعة تقارب التاسعة مساء .. الجو بارد جدا .. والسماء كتلة معتمة .. وقفت في انتظار قدوم باص المصلحة وبعد قليل هبت رياح عاصفة اعقبتها أمطار غزيرة .. كان هناك كشك يبيع المرطبات والصحف .. فاسرع الجميع يحتمون



بظله ، وتلكأت انا حيث لم يبق مكان لقدم .. وفي ظل هذا الكشك الخشبي الصغير وفي ظرف كهذا رايته لاول مرة .. افسح لي مكانا الى جانبه وهو يقول : الفريق يتعلق بقشة ، وها نحن نحتمي بما لا يكاد يحمي .. وضحك .. فرفعت اليه عيني شاكرة ، ابتسم له بدوري .

في الطريق والباص يسير بي تنبهت الى انني كنت اسرح منذ فترة فلم اتبين كم قطع بي وكم مضى من الوقت وانا فيه .. رفعت اصابعي امسح الضباب عن الزجاج لانظر الى الطريق فاصطدمت بصورتي .. الظلمة تسود كل شيء والامطار تضرب الزجاج بعنف والباص يترنح .. فتلفت حولي افتش عن الجابي استنجده .. فهالني ان اجد جميع الركاب قد تركوا الا واحدا يجلس في الجانب الآخر .. وفي المقعد الاخير رايت الجابي يغط في نومه .. فأحسست قشعريرة اذ لم اعتد أن اكون وحدي في مثل هذا الجو وفي هذا الوقت . حينذاك سمعت صوت الراكب معي يقول : لا زالت امامك ثلاث مناطق حتى تنزلي ... التفت حيث كان . قال وهو يبتسم : لقد اضعت الطريق ، اعرف ذلك ، الحق معك فالرياح شديدة والظلمة حالكة .. وانا نفسي قبل هنيهة كنت افكر باننا كمن نجلس في مركبة فضائية لا في سيارة تسير على الارض .. زال خوفي انه الرجل الذي افسح لي مكانا قبل قليل. يبدو انه كان يراقبني وادرك اني كنت ارتعد خوفا ، فشعرت بالخجل . توقف الباص للحظات ثم واصل سيره ، واصطفقت بابه بعد ان عبأت كمية من الهواء البارد اصطدمت بوجهي .. سمعته يقول : لقد كانت ندوة ممتعة .. اذن لقد كان هناك .. سألته : هل كنت حاضرا ..؟ البرد يكاد يجمد اطرافي ، كنت اجلس خلفك مباشرة .. انا لا تفوتني مثل هذه الندوات .. واشعل سيكارة فشعرت بالدفء .. ووجدتني اتطلع فيه بامعان ..

صوته عميق .. فيه بحة غريبة .. كأن رشحا اصاب حنجرته انه يوقظ الانتباه اليه .. عيناه حالكتان .. ووجهه قاس .. اثر جرح عميق في اعلى خده الايسر .. حاجباه معقودان فوق ارنبة انفه .. يتكلم دون أن ينظر الى مخاطبه وظل ابتسامة تحرف شفتيه بعض الشيء .. كل شيء في وجهه يوحي بالغموض، ويبعث في النفس بعض خوف كأني رأيت هذا الوجه من قبل ولكن اين . يبدو انه احس اني اتفحصه .. ما اغباني .. ماذا سيعتقد .. هذه عادتي لو اتركها فكلما تعرفت الى وجه جديد أطيل التطلع اليه، ادرس ملامحه وكأني ارسمها . طبعي هذا سيسبب لي متاعب يوما ما .. سمعته يسأل : انك تتساءلين اين التقينا من قبل .! لقد التقينا في مكتبة المعهد البريطاني .. فانا دائم التردد هناك وجوها يهيء لي مجالا للدرس .

اسبوعان مرا .. فتشت عنه انظاري في كل زاوية من المعهد .. المكتبة .. الصالون .. الحديقة .. تساءلت لعله انقطع عن المجيء اليه.! بعد ايام قليلة سيبدا امتحان الكورس كنت اجلس يوما وصديقتي في الصالون حين دخل .. حياني وهو على الباب .. لست ادري ما اصابني .. كأن دلوا مملوءا بماء ساخن صب على راسي . اخيرا لقد جاء . ورايته يتوجه نحونا وناول صديقتي كتابا واستأذن بالجلوس واشار الى الخادم وطلب شايا لثلاثة .. حتى لم يسألنا ان كنا نطلب شيئا آخر . وتكلم مع نفسه .. الشاي يبعث الدفء .. واشعل سيكارة وقطب حاجبيه .. انا اتفحصه منذ برهة، هذا الرجل كأنه يحمل هموم الدنيا على كتفيه يتكلم معنا وانظاره معلقة في لا شيء .. مسحة كآبة في عينيه كأنه كفكف دموعها لتوه .. في تلك الامسية عرفت ان اسمه (اميل) وانه من فلسطين لم يبد ذلك من لهجته .. قالت عائدة : كلهم يقولون ذلك انه صديق اخي وهو طالب بعثة . وقالت ايضا سألني عنك اكثر من مرة اعتقدت انك تعرفينه، سرحت مع كلماتها سأل عنك اكثر من مرة .. لم تقولي لي ذلك من قبل يا عائدة ..

اكاد اختنق .. يوما ما سأموت.. (اميل) سيعيش بعدي وساكون ذكرى عابرة .. امرأة مرت في دربه .. ولكن من يدري فقد يموت قبلي .. ان اعلنت الحرب مع اسرائيل سوف يدخل غمارها .. وربما سيموت أو ربما سيعود الى امه انسانا مشوها .. وعندئذ .. ماذا .. لا شيء سوف لن يتوقف الكون ..

وبقفزة واحدة نهضت وسحبت الستارة وفتحت النافذة .. الامطار خفت .. لتشتد فانها لا تهمني .. سوف ارتدي ملابسي واخرج . توجهت نحو الدولاب فواجهتني المرآة .. بشرتي شاحبة .. انتفاخ في اجفاني .. هكذا تسير حياتي هذه الايام .. ارق في الليل وسرحان في النهار .. منخرا انفي ازدادا اصطفاقا ترى كم نقص وزني ...! لو رآني « اميل » بهذا الشكل لندم على حبه لي .. « أميل » بئر عميق مظلم .. سيحيلني هشيما .. لا اريد ان اكتشف مجاهله .. منذ اليوم ساكون انسانة اخرى ..

وتناولت مشطا .. سرحت به شعري ودفعت خصلاته الى الوراء خلف اذني وثبتها بدبوسين .. سنابل قمح مغبرة .. وانشلت اطرافي وسقط المشط من بين اصابعي ..

كنت هناك .. اطالع في المكتبة .. احسست من يهمس خلفي فانتفضت فاذا به : ــ هل لي ان امتلك شيئا من وقتك ..؟ ــ لا بأس .. وللملمت الصفحات انه دائما الآمر الناهي .. وانا ظله .. وسرت الى جانبه .. شممت رائحة صوف بلل تفوح من سترته فسألته : هل المطر ينهمر ..! اجابني : ينزل قليلا ثم يتوقف .. هيا نجلس في الحديقة فقد زارنا الربيع هذا المساء .. وسمعته يقول : كنت مارا لمحتك من الخلف قلت : هذه السنابل المغبرة لا يمكن ان تكون لغيرها . تطلعت اليه استفهم . قال : اقصد شعرك ..! يتغزل بشعري وعيناه في الفضاء كأني لم اكن موجودة معه . ــ قلت : هذا تشبيه غريب وسحب مقعدا قرب طاولة وقدمه لي واسترخى على آخر ومد ساقيه واردف : انها صورة زيتية في أعماقي طالما احببتها .. صبيا يحمل حزمة من سنابل قمح في حقل حصاد .. الحقل بدا شاسعا متموجا .. وعاصفة مغبرة تعكره والطفل ينوء بحمله والحزمة في يديه بدت بهذا اللون، واشار الى شعري .. وتوثبت نظراته كأنها الشرر وزم شفتيه .. بدا غريبا جدا .. حيران شرس يتطلع الى فريسته .. وفجأة استسلم ..رقت نظراته وانفرجت شفتيه عن ابتسامة طفل .. ثم القى راسه على ظهر الكرسي وتابع : ــ كنت اقف طويلا كلما ارتقيت السلم .. احلم اني ادخل الحقل اساعد الصبي في حمله .. كان في مثل عمري والحقل المغبر كان عالمي الواسع تعدو فيه احلام طفولتي .. ثم غادرنا بيتنا .. اخرجنا من حيفا والوطن كله .. ورق صوته، كأنه ينتحب في صمت .. واوهمت اننا سنعود اليه بعد ايام .. ومرت الايام .. والصورة مأساتي الصغيرة .. اما المأساة الكبيرة .. وابتسم .. ابتسامته المعهودة .. بدأت ادرك سر غموضه . وامتدت يده فوق المنضدة وسحقت اصابعه عقب سيكارة ونظر الي وضحك : ــ هل تعجبك قصتي هذه ..؟ واستقرت عيناه على شعري .. لاول مرة تتركز نظراته .. تمنيت ان ارخي راسي على كتفه وانتحب حتى يجف دمعي .. سألته : ــ هل لك اخوة ..؟ ــ لي اخ في لبنان واخت تعيش مع زوجها في الجزء المحتل من فلسطين .. ــ هل تصلكم اخبارها ..؟ ــ منذ سنتين فقط عن طريق الصليب الاحمر .. لا يزال يتطلع، نظراته عميقة فيها شوق

بالامس

قال الصديق : ارى في عينك الالما   وكنت بالامس مسرورا ومبتسما
تهوي العيون وتجري خلفها طربا   وتستسيغ اذا ما شمتها السقما
كم ذا رايتك مشغولا بقافية   في حب غانية لا تشتكي الساما
تبني من الوهم آفاقا منمقة   وتسكب الشعر في كاساتنا نغما
وتطعم الهم لا تشكو مرارته   وتدفن الامس لا تحيي به الندما
تقدس الجرح مشتاقا للوعته   لم تجتنبه ولم ترهب له الما
تستقبل الحزن يا هذا وتكرمه   حتى مع الحزن قد علمتنا الكرما
كم قد اتتك من الايام نازلة   وكنت تستقبل الآلام مبتسما
لكنني اليوم قد شاهدت واعجبي   طيفا من الحزن في سيماك مرتسما

***

نعم لقد كنت مسرورا ومبتسما   لكن قصري الذي شيدته انهدما
اودعت آمال قلبي عند غانية   وكنت احسب ان الثغر ما علما
لكن شوقي اليها شف عن ولهي   ونم وجهي وجاش الدمع ثم هما

***

قالت تداعبني اذ جئت محتدما :   يا شاعري غنني اهواك مبتسما

حمص   راغب طليمات

وجدتني اتعلق بشفتيه .. انه يريد ان يقول شيئا .. ليته يصمت لا اريده ان يتكلم .. آفاقي صحراء.. اهيم فيها سعيدة لا اريد لها اشجارا تورق ولا جبالا تخضر لا اريد لها ربيعا يزهر لن يكون لي معه شأن .. اني اخافه .. هذا الذي اسمته امه « أميل » .. امراة غريبة عني منذ متى تسلل الى قلبي..؟؟ وتكلم اخيرا: لم اكن احلم ان امراة ما ستشغلني يوما .. وسكت .. شوق يطل من عينيه .. عيناه تكاد تلتهمني .. انا اخافه .. عنيف .. سيدمرني حبه .. رجل شاذ .. وتابع : بعد اشهر سأغادر بغداد سأمكث هناك ثلاثة سنين .. فان كنت .. منذ لحظات وانا انظر فوق المنضدة اعد قطرات المطر .. تضاعفت السرعة امتلأت المنضدة .. تاه علي الحساب .. فان كنت .. فان كنت ماذا ..؟؟ لا اريد ان يكمل ساقطع جملته .. انقطعت : لننهض .. فقد بللنا المطر ..

لم يبق سوى بضعة ايام وسيغادر .. ساغيب عنه حتى ذلك الحين..

لا زال المطر ينهمر والمرآة تواجهني .. راسي يؤلمني وشعري يثقل كتفي .. سنابل قمح مغبرة .. لن تكون سوى حزمة شوك .. منذ متى تستعبدني سأثأر لنفسي منك .. ساجعلك وليمة لاقدام النساء في صالون الحلاق ، هذا المساء .. والآن ساقيم لك حفلة توديعية .. تحت المطر .. وسحبت الدبوسين وللمته كله في مقدمة راسي وتوجهت نحو النافذة .. واخرجت راسي .. راسي كله حتى العنق .. مطر .. مطر .. مطر .. ليت السياب كان حاضرا معي الآن .. اذن لاسمعته لحنا رائعا لقصيدته .. المطر نفذ الى كل جزء من راسي .. وبلل صدر قميص النوم وواجهت المرآة ثانية .. الماء يتساقط من شعري على البلاط .. قشعريرة تسري في ظهري .. سأمرض لكني سأكسر أغلالي .. لن يقيدني شيء بعد الآن .. انا كما أنا .. وخلعت قميصي وتناولت منشفة .. سمعت لحنا حزينا يصلني من المقهى القريبة من بيتنا متقطعا مع زخات المطر .. « كل شيء راح وانقضى » .. وهديل حمامة في اعلى المزراب بلل افراخها المطر .. ايقاع منسجم ..

انتفضت على قرع في بابي .. وصوت امي تقول : « ماذا تفعلين منذ ربع ساعة وانا انادي .. هيا انزلي.. المائدة جاهزة وابوك ينتظر » ..ليس للانسان في هذا البيت ان يتنفس هواه بطريقته .. ابوك ينتظر .. ابي يحمل قطعا لامعة فوق كتفيه .. ويحسبنا جنودا في ثكنته ..وتناولت على عجل ثوبا ، ارتديته ونزلت السلم قفزا.. واجهتني المائدة وابي واخوتي .. لم انظر الى احد منهم .. انهم غير موجودين .. وانحرفت رأسا نحو الباب .. فتحته وجرفني الشارع..

سمعت امي تصيح: سلوى..سلوى الى اين في هذا الجو ..؟ لوحت لها من بعيد : ــ الى الحلاق .. سأقص شعري .. ومن هناك الى السينما مع صديقاتي ..

بغداد   سهيلة داود سلمان

صقر الشبيب شاعر التشاؤم

بقلم قدري قلعجي

* * *

اذا كان فهد العسكر يمثل روح الشباب في الادب الكويتي ، فان صقر الشبيب هو بلا منازع شيخ شعراء الكويت .. وشاعرنا هذا عصامي شق سبيله بكثير من الجهد والداب والصبر على بأساء الحياة وضرائها ، نشأ في اسرة رقيقة الحال ، يعمل فيها والده صائد سمك ، وقد اراد لابنه ان يسلك نهجه في الحياة ، ولكن نور بصره انطفأ وهو في السابعة من عمره ، فعمد الفتى الى ان يكون صائد لآليء اين منها كنوز البحار ، ولم تكن السنوات القليلة التي قضاها في كتاتيب الكويت والبحرين بكافية لتعليمه وتثقيفه ، فانزوى في منزله بعد ان فقد والديه وقد فدحه الالم والكآبة والوحدة ، واكب على دواوين المعري والمتنبي من الاقدمين، وحافظ وشوقي من المحدثين ، يختزن بذاكرته من فنون القول ما يلتقي مع واقعه الشجي على صعيد واحد ، فكان تلميذا للمعري في نقد المجتمع وارسال نظرات في الحياة .

وقد نعم الشاعر فترة من حياته بكنف الشيخ سالم بن مبارك الصباح حاكم الكويت الاسبق ، ولكنه عاد فانسحب الى بيته على غرار استاذه رهين المحبسين ، يشكو جور زمانه الذي كسر منه الجناح ، واسلمه للاحزان والاتراح ، نكرة في مجتمع هو منه في اعلى ذراه :

يقولون لي يا صقر مالك واقعا … من الكف عن طير القريض على وكر
اذا لم تحلق في فضا الشعر صائدا … طيور معانيه فما أنت بالصقر
وما علموا آن المقادير قد رمت … جناحي عن قوس الحوادث بالكسر
الى الله اشكو انني في معاشر … يروني من الاعسار كالواو في عمرو

وكثيرا ما تكون آراء الشاعر كرجع الصدى لآراء شيخ المعرة ، فاذا قال المعري :

اذا قال فيك امرؤ مالا تحبه … فصبرا يفيء ود العدو اليك

يقول شاعرنا الذي اكتو بنار مجتمعه :

ومالي من مغيث حين أدعو … واجهر بالدعاء الا مغيثا
كاني بينكم ذئب خبيث … ومن ذا يرحم الذئب الخبيثا
فان يغضبكم نصحي واني … لكم بالغش لم امزج حديثا
ستلقوني كما اني قديما … بحبل الصبر معتصما حديثا
حثيثا سير نصحكم اليكم … فسيروا بالاذية لي حثيثا
... سانزل من قلوبكم مكانا … اذا انجاب الكرى عنكم دميثا
ولو اسمعتموني اليوم قولا … جرير قبل اسمعه البعيثا

---

* يتابع الكاتب بهذا الفصل سلسلة من الابحاث عن ادباء الخليج العربي ، ويسره ان يتلقى من ابناء هذه المنطقة الغنية بالكفايات ، آثار ادبائهم وسير حياتهم وكل ما يساعد على القاء النور على تلك الطاقات المنسية والمواهب المجهولة .

فرب نصيح أقوام شتيم … اصاروه لحمدهم وريثا

وكما شكا المعري من مزيفي فقهاء زمانه ، الرافعين راية الدين عن غير حق ، والذين ليسوا في حقيقتهم الا طلبة مغانم ، ودعاة شقاق ، ومتسربلون بحلل الرياء التي لا تخفى على بصير المعرة الذي عرف كيف يصليهم نار الانتقاد بامثال قوله :

* انما هذه المذاهب أسبا … ب لجذب الدنيا الى الرؤساء
* فاميرهم نال الامارة بالخنا … وتقيهم بصلاته يتصيد
* توهمت يا مغرور انك دين … علي يمين الله ما لك دين

كذلك يشكو شاعرنا سليل روح المعري ، من سلالة اولئك المتلبسين مسوح الدين كذبا وبهتانا :

علمتم باتحاد القوم فوتا … لما فيه لطمعكم علاله
فابدلتم وئام القوم خلفا … لتحظوا بالدقيق وبالنخاله
والبستم خداعكم لثاما … من اسم الدين مسبلة غلاله
اعند اولي العمائم من كتاب … به قد خصهم رب الجلالة
فهم يتلون دون الناس آيا … الى قبح الشقاق به استمالة
لتوقد من جحيم الخلف مالا … يخاف سوى الالباء اشتعاله

وكما قال المعري بالجبر في قوله :

تقفون والفلك المحرك دائر … وتقدرون وتضحك الاقدار

وقوله :

ما باختياري ميلادي ولا هرمي … ولا حياتي ، فهل لي بعد تخيير

يقول صقر الشبيب في كأس القدر :

أحس كفيري طعمها غير عالـ … ـكفيري ايفا سر تجريعي الكاسا
فآخذ مضطرا ، واترك مرغما … ويصبح بالاسرار جهلي كما امسى

ويشرح الشاعر قصة وجود الخليقة ناظرا اليها من هذه الزاوية ، زاوية الجبر ، لان الانسان لا يمكن ان يرضى لاعقابه الشقاء ، ووجودهم ، في عرف الشاعر ، هو فحوى الشقاء وسر البلاء :

امحب اولاده الوالد المسكين ، … ام كان مبغضا اولاده
ان يكن والد البنين محبا … فلماذا قد فك باب الولادة ؟
وهو باب مذمر منه الى الدنيا … تمنى في وجهه ايصاده
أفيرضى المحب ان ينظر المحبو … ب يشكو من الشقاء اشتداده ؟
ان يكن حاقدا يريد انتقاما … فسلوه ماذا نما احقاده ؟
انما يحقد الحقود على من … قد رآهم بين الورى اضداده
وبنوه في عالم الغيب لم يأ … توا بأمر يسوء منه فؤاده ..
واذن ليس عن هوى او لبغض … رام ذو النسل نسله واراده !

واذا كان للحياة وجهها الباسم ووجهها العبوس، وطعمها الحلو حينا والمر حينا آخر ، فان صقر الشبيب لم يعرف منها غير الجوانب المدلهمة ، ولم يذق غير المرارة والشقاء ، مما اسبغ على نفسيته وبالتالي على شعره طابعا تشاؤميا ، ونقمة على المجتمع ، وزهدا في عشرة الناس :

قالوا اعتزلت الناس قلت لهم … جروا علي المحزنات صنوفا
لولا مخالطتي البرية لم يكن … قلبي لذؤبان الهموم خروفا

في هذه العزلة ، وهذه الغربة ، وهذا الحرمان ، عاش مغمورا ومات منسيا شاعر كبير لم يعرفه ولم يصغ الى شجو قلبه الجريح الا قلة من الاصدقاء المخلصين .

قدري قلعجي

اسطورة

أشواقي فرط عناقيدك
ودموعي زفرة تنهيدك

فبحق عذابات قيودي
وبكل جراحاتي .. عودي

رشي خطواتك في مرجي
فالزورق ضل مع الموج

ويقال بأن الاعصار
والجن .. وليل الانهار

اطفات الشمس الالاقه
احرقت الارض الخلاقه

واقامت بين امانينا ..
والهوة حبا وصداقه

في المرفأ .. خف مثقوب
وجراح تعوي .. وندوب

وقميص مهترىء شاحب
وكتاب مفتوح راعب

وخيال يبكيه الموضع
لغريب ابحر لم يرجع

وهناك رسائل مكتوبه
بدموع الطل المسكوبه

احرفها شوك .. وجفاف
وشواطىء تبكي وضفاف

وشكاة رباب رعاف
يحنو لاساه الصفصاف

معناها .. حط هنا شاعر
في يده قلم .. ودفاتر

وفتاة تحمل شبابه
تتأود عشقا وصبابه

غناها الشاعر احلامه
ومضى يهديها انغامه

وبكل ضراعات ربابه
وشوشها احلام شبابه

اغفت.. واراحت في فمه
شفتيها .. نارا في دمه

لكن الظلمة .. والاعصار
والجن .. وليل الانهار

اطفات الشمس الالاقه
احرقت الارض الخلاقه

واقامت بين امانيه
والهوة حبا .. وصداقة

فأضل البحر سفينته
وابتلع الموج حبيبته !

يوما .. والعالم ذهلان
والافق الدامع غيمان

اصغى.. فراى طيرا يحدو
فيصيح الاخضر.. والصلد

اصغى.. لخرير في الجدول
فراى الاسماك به تثمل

اصغى .. فاذا كل غناء
يبتعث حياة الاحياء

فأفاق .. وردد : سأغني
شعراً.. للبحر.. وللجن..

من يدري.. فلعل شكاتي
تعطفها .. فترد فتاتي

واذاب مع الليل شموعه
واراق مع الفجر دموعه

ومشى في الشوك.. وللشوك
وغفا في القمة.. والدرك

وجثا يستاف جراحاته
ويلوب بكل عذاباته

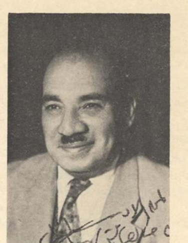
ويهز الموج بكفيه
ويقبل حتى عينيه

ويغني .. ويضيء الدنيا
انغاما تحلم باللقيا

فانشق البحر عن الحلوه
تبحث في الشاطىء عن غنوه

فالغنوة .. ردتها حره
لفتاها .. ما اجمل شعره

القاهرة — محمد احمد العزب



انور الجندي

ابراهيم الابياري

بقلم انور الجندي

*

قلما يتحقق لكاتب او باحث ان يعرف طريقه الحقيقي منذ الشوط الاول ، ويسير فيه منذ الخطوة الاولى ، فيعمقه ويوسعه ويعطيه من ذاته وشبابه وجهده حتى يصبح علما عليه ، كما حدث ذلك لابراهيم الابياري ..

الشاب خريج دار العلوم عام ١٩٢٩ اول من شق طريق التحقيق العلمي للمخطوط العربي ، في وقت لم يكن هذا العمل ميسورا او متاحا للمثقفين من ابناء المدرسة الحديثة، ويوم كان قاصرا على فئة قليلة من علماء الازهر وبعض السوريين من تلاميذ المستشرقين .

ليست هي المصادفة على كل حال التي اتاحت له ان يعمل في مطالع حياته بالقسم الادبي في دار الكتب مع احمد زكي العدوي وعبد الرحيم محمود ، والا فقد كان في استطاعته ان يحول طريقه ولكنه التقى في هذه الفترة برجلين كان لهما أثرهما في تعميق خبراته ومواصلة طريقه في هذا العمل : هما محمد كرد علي واحمد امين .

وقد اتسعت هذه المدرسة من بعد ودخلها الكثيرون ، واصبح تحقيق المخطوطات فنا وضع قواعده الاولى رجال لهم ذوق قبل ان يكونوا من اعلام اللغة . فقد كانت دار الكتب تزخر بالمراجع ، ولكن التحقيق العلمي المخطوط لم يكن متاحا على النحو الفني الرفيع ، واذا كان تصويب الاسلوب واللغة هو « المظهر الاول » لتحقيق المخطوط فان القدرة الادبية والذوق الفني هما «المخبر الاساسي» للعمل.

اذن ، كيف استطاع ابراهيم الابياري ان ينقل خطواته في هذا الطريق المخوف ، لعل لمحة من لمحات مطالع حياته تعطينا الدلالة ، كان الطالب ابرهيم الابياري من ابناء طنطا يسكن قريباً من المسجد الاحمدي ويتردد على « دكان العطر » ، كل اصيل ، فيلقى هناك صفوة العلماء ، يتحدثون في الادب ، ويتطارحون الشعر .

ودكان العطر ، وصاحبه الشيخ سماحة ، على باب السر، كان ندوة للعلماء، لا يبيع صاحبه الا زجاجات الفل والياسمين والورد ، والشيخ سماحة نفسه مثل من امثلة الذوق في لباسه الانيق ، وسماحة وجهه ، واشراق نفسه ، في هذا الحمى حيث تشرق العاطفة الروحية ، وتعقد حلقات الذكر، ويتحدث العلماء ، وعند دكان العطر ، تكونت الصورة الاولى للذوق في نفس الشاب الذي شغل نفسه من بعد بتحقيق المخطوطات فبلغ فيها الذروة ، واستطاع ان يقدم عشرات من الاسفار الرائعة في خلال ثلاثين عاما ، لم تكن كل جهده وعملـــه .

ولم يكن دكان العطر ومجلس العلماء فحسب ولكن كانت هناك مكتبة الشيخ محمد كامل ألبهي الازهري الذي تعلم الحقوق الفرنسية ، شيخ الحنفية وصاحب المكتبة الخاصة، وشقيق الدكتور احمد تركي وزير البحث العلمي ، رفيق طفولة الابياري ، حيث كانت الكتب القديمة تجمع عند الشيخ كامل اكواما ، فلا يجد من تعتمد عليه في ترتيبها غير تركي والابياري ، اما تركي فكان ينفر من الكتب الصفراء ويتطلع الى الانابيق ، اما الابياري فقد عشش وافرخ في ظلال هذه المكتبة، فهو مشغول بها طوال نهار اجازته الصيفية يقرا ويرتب، ولا يصبر على ان يعود الى بيته ليأكل، فيحمل معه رغيفه وادامه يتناوله في المكتبة ، هنالك اتيحت لـــه فرصة الحياة ، فرصة التعرف الى مئات من الكتب القديمة والالمام بالمراجع وامهات التراث . فلما اتيح له ان يدخل دار العلوم كان الطريق قد فتح فعلا الى الافق الذي اختاره لـــه القـــدر .

وفي دار الكتب مضى الابياري يهمش ويرقم ويحقق ، واعتمدوا عليه قبل أن يدلوه على الطريقة ، ولكنه استطاع بارادته القوية ان يصمد للعمل ، وان يصل ، عيون الاخبار ، الاغاني ، مسالك الابصار ... فقه اللغة للثعالبي ، السيرة لابن هشام ، التبيان للعكبري في شرح ديوان أبي تمام ، المعجم لابي هلال ، ديوان عبد المطلب .

ومع السقا وشاكر وعبد السلام هارون مضى في الطريق: الحيوان للجاحظ ، ديوان المعاني لابي هلال العسكري ، ومع

لجنة احياء اثار ابي العلاء ، ومع احمد امين ، ومع لجنة التأليف ، كان ابراهيم يعمل في قوة وحيوية ، ويجري في طريق كان هو من الذين عبدوه اصلا .

غير ان طريق تحقيق المخطوطات لم يلبث ان تفرع وتوسع فاتصل بالتحقيق اللغوي من خلال عمل كبير هو المعجم الكبير الذي شارك فيه مع طه حسين ومراد كامل وحسين يوسف .

وفي خلال هذا العمل الفكري كان الابياري يعمل بالتعليم حفيا بان يظل في القاهرة فعلا فلا يغريه الحصول على الدرجة في ان يسافر الى اقاصي الصعيد ، حتى لا ينقطع عمله الثقافي ، فلا يلبث ان ينشيء حصة مكتبة قبل ان تفكر فيها وزارة (المعارف). ثم يجعل موضوع الانشاء عصارة كتاب من المؤلفات ، ثم لا يلبث ان تنشيء ادارة لتحقيق التراث في ادارة الثقافة ، صغيرة حيية الى جوار ادارة الترجمة فيتولاها ، ولا يقف عند التحقيق والبحث اللغوي، فيكتب في تاريخ العرب والاسلام عددا من المؤلفات : مغيب دولة ، ميلاد دولة ، كافور الاخشيد ، صلاح الدين .. هادفا في هذا الاتجاه الى مفهوم واضح في نفسه ربما اشار اليه في مقدمات هذه الكتب ، فهو يريد ان يبرز مكانة مصر في العالم العربي ودورها الذي لعبته في تجميع هذه الامة، وما لقيت في سبيل ذلك من جهد صبرت عليه واستعذبته مضحية في سبيل حماية لواء العروبة ، يقول « اراتني حين اتناول هذا الحديث اجعل الراي هدفي والتاريخ وسيلتي » وكانما اراد ان يجعل من الحقائق التاريخية وسيلته الى تدعيم رايه واثباته .

وهو في هذا « مواطن يحب الخير لامته » ، فهو اذا وجد ظفرا فرح به واذا وجد ضعفا ساءه ، وهو يريد ان يشرك قومه في كل ما يجد .

ثم يتاح للابياري في سبيل تعميق فكره ورسالته ان ينشيء معهدا اسبانيا للدراسات الاسلامية في مدريد .. وليشرف عليه (١٩٥٠ — ١٩٥٣) فيجد مجاله في العمل الكبير للفكر العربي الاسلامي ، حيث يبدا في تعليم العربية للاسبان وهي ليست بعيدة عنهم ، ثم يبدا في عمل قاموس اسباني عربي ، عربي اسباني ، ويجري تحقيق نصوص اندلسية ، وانشاء مطبعة ، وحروف تصب في مطبعة بولاق وعمال من المغرب يتولون جمعها ، وبدا يشرق فكر جديد في اسبانيا يكشف عن الثقافة العربية الاسلامية والناس هناك عرب في صميم قلوبهم حيث تضم لغتهم حتى الآن بعد كل التصفيات التي جرت ١٤ في المائة ، ووقفت حركة التعريب العاتية في وجه هذا العمل وتجمد المعهد من بعد ، ومهما يكن من نتيجة التجربة فانها اضافت الى نفس « المحقق العربي » امدادات جديدة دفعته في طريقه الواضح في نفسه : طريق « المدرسة الوسطى » مدرسة البناء على الاساس ، ثم اذا هو يعود وقد كون فكرة عن عمل كبير ، هو امتداد طبيعي وتطور حقيقي للمفاهيم القائمة في اعماق النفس ، والتي كانت صورتها الاولى هي « تحقيق النصص » ذلك انه لا بد من اجل بناء ثقافي حقيقة لهذه الامة من عملين هما :

— تطوير اللغة وبعث التراث ، ولا قومية عربية بغير لغة ، واللغة لا تبدأ الا اذا كان هناك معجم ، فالمعجم هو كتاب البدء في اللغة ...

وذلك هو العمل الذي بدأ يحققه في مجاله الجديد في وزارة الثقافة ، ومؤسسة الابناء والنشر حيث يلي منصب المستشار . وقد تدرج بالمعاجم الى خمس مراحل في مجال الالفاظ كما تنطق وكما تشق ، وكما تترادف ، وكما تداعي المعاني .

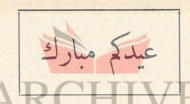
— وكذلك تتبلور فكرة « تحقيق النصوص » عنده الى عمل كبير في مجالات ثلاث :

الادب والتاريخ واللغة فلا ادب بغير نص ، ولا تاريخ بغير وقائع ثابتة ، ولا لغة بغير فن ... فما الذي يمنع ان تبرز موسوعات ثلاث تستوعب كل منها عصارة ما هنالك من تراث على نحو يقضي على التكرار والتعارض . ذلك ان اغلب كتبنا القديمة مخطوطة ومطبوعة تتكرر في الاصول والاوليات ثم تتوسع في مراحل فلا ضير اذن من القضاء على هذا التكرار والتقاء الاجزاء الجديدة حلقة بعد حلقة في موسوعة تتفق مع روح العصر ، وتقدم عصارة غير مكررة ولا مضطربة ولا متعارضة بما يحقق للمثقف العربي الجديد حاجته وفق روح العصر مع المحافظة على تلك الثروة الاساسية من تراثنا وفكرنا القديم المتجدد المتطور .

وهكذا تبدو الصورة الآن في ذهن الرجل الذي بدأ العمل منذ ثلاثين سنة في ميدان تحقيق المخطوطات، كصورة حية نابضة لعمل كبير ظل يتكشف مع الزمن وزادته الخبرة والاتصال بالمجالات الفكرية المختلفة في داخل الوطن العربي وخارجه قوة وتبلورا ، ولا عجب في ذلك فان « ابراهيم الابياري » تلميذ اصيل للمدرسة الفكرية التي صنعتها (دار العلوم) في بلادنا ، وهي المدرسة التي تحررت من قيود مدرستي التقليد في صورة الجمود ، والتجديد في صورة التطرف ، وهي التي خلقت ذلك التيار الوسط النابع من اعماق هذه الامة ، وقوامه امتزاج المحافظة بالتجديد على نحو لا جمود فيه ولا تطرف ، والذي برز من بعد في مجاله البناء حين دعا الى قيام قاعدة اساسية للفكر العربي قوامها ملامح واضحة لشخصيتنا وقيمنا مع فتح النوافذ للثقافات المختلفة التي تضيف الى شخصيتنا قوة وحياة وتدفعنا الى مسايرة التطور والنهضة العالمية دون ان نفقد كياننا او نكون تابعين او مستوردين او ضائعين .

القاهرة

انور الجندي



بقلم محمد نديم



غدا ..

وتكبر فرحته . يشعر بها تملأ المكان حتى يفيض بها . يقول لنفسه من جديد :

العيد بعد ساعات . بمجرد ان يمضي الليل .

يكرر ذلك لنفسه كأنه يؤكد لها ما تحلم به من زمن بعيد .

مرتان في العام ـ العيد الكبير والعيد الصغير ـ يأكل فيهما كثيرا من الحلوى . من شتى الاصناف غير الجيدة دوما . انما في بعض الاحيان كان يفوز بقطعة او اثنتين ، مما يراه معبأ في علب فضية وذهبية وملونة .

اما (الشوكولاته) فهذه حلوى بعيدة المنال ، كما يكون شراء بنطال جديد او حذاء لامع ولو مجرط صندل ازرق .. ويذكر انه فاز مرة بقطعة واحدة سقطت من احد الاطفال . كان يلهو بها في شرفةمنزل يقابل كوخهم .

كان طفلا يرتدي البنطال القصير والحذاء الناعم ويضع في قبة قميصه ربطة حمراء على شكل عقدة . ويذكر ان الطفل اخذ يضحك منه بصوت عال وهو يراه يهجم على قطعة الشوكولاتة ويفر بها . لقد خاف ان ينزلوا اليه وينتزعوها منه. لقد كانت تستحق عناء استعادتها ، فهي كبيرة بحجم الجوزة . يغلفها قشر من الفضة .. اطبق عليها بشدة ثم خاف ان تذيبها حرارة يده فاسقطها بجيبه ولكنه لم يستطع الا ان يمسكها بيده . واقتعد مكانا قصيا .. واشغل كل فكره بتلك القطعة العزيزة التي تستقر في جيبه . وتحير كيف يأكلها .. لقمة واحدة يهشمها في فمه . ام قطعة قطعة . ام يذيبها بلسانه حتى يصل الى حشوها ..

ـ تبا للمطر سيحرمني غدا من اشياء كثيرة ..

قال لنفسه وهو يصغي من جديد لنقر المطر على سقف كوخهم . قدر ان الساعة قد جاوزت الثانية عشرة . وكانت الريح وهي تقتحم المنافذ الكثيرة تحرك الخيالات الهزيلة التي يرسمها مصباح نفطي خففت اضاءته كبندول ساعة كبيرة .

ديك الجيران لم يصح بعد . والليل رداء اسود ثقيل يبدو أن احدا لن يرفعه ابدا .

فكر ان يذهب الى الخارج ليرى بنفسه سبب هذا التأخير انما منعه البرد المتربص خارجا لبضع دقائق لم يستطع بعدها المقاومة فقذف الدثار بعيدا وقام مسرعا شادا اكمامه واعلى بنطاله متقافزا على رؤوس اصابعه الى الباب ففتحه ببطء مستقبلا زخة مطر على وجهه . ولم ير شيئا .حتى زخة المطر احس بها دون ان يراها .

الرداء الاسود ما زال ولكن ديك الجيران بدا عمله . عاد الى الفراش. جلس عليه القرفصاء ورفع الدثار حتى رقبته مستندا الى الجدار بظهره ..

لقد بدا العيد ..

ابواه بجانبه يغطان في نومهما وثلاثة اطفال صغار في اقصى المكان. هو في العاشرة . اكبر الاولاد . وابوه عامل بناء يعمل يوما ويقتعد الكوخ عشرة ايام . انهم فقراء . سمع ابويه يرددانها دوما . ودون ان يشرحا له كان يعلم ما يعني ذلك . كان للفقر معنى واحد لديه .. هو عدم احتفالهم بالعيد . لقد اشترى ابوه البارحة قطعة كبيرة من اللحم . وقد رددت امه اكثر من مرة ، انها ستصحو مع الفجر لتطهوها .. ولكن ذلك لن يغير من الامر شيئا . اين الكعك ؟.. ان رائحته تعبق منذ ايام في كل مكان ما عدا كوخهم . اين الحلو .. كل اب عاد وتحت ابطه اكياسا منه . الا ابوه . حتى الثياب . سيحتفل بالعيد بنفس البنطال الصيفي المرفو في عدة مواضع والذي يلعب به منذ اشهر . وحذاؤه لم يعد له باطن . ان الماء يبلل قدمه دوما .. خاصة والمطر لا ينقطع . وكأن وصول تفكيره الى هذه النقطة ما جعله يفيق قليلا ويرسل بصره من خلال النافذة الصغيرة . كان الفجر يمسح الدنيا ببطء . ولم يسمع لزخات المطر وقعا .. حتى انه راى فجوات زرقاء خلال السحاب الداكن .

قامت امه فجأة . وهي تفرك عينيها :

ما لك جالس . ما زال الوقت باكرا .

لم يجب . وتابعها بعينيه وهي تتحرك حوله . ثم لم يعد يفعل ذلك. عاد الى افكاره يغور معها ..

كالعادة.. سيدور على بيوت الحي كلها. .شامخها وواطئها. لن يصطحب اخاه الصغير كما وعده البارحة . سيعيقه ذلك كثيرا . سيكون وحده . يطرق الابواب وفمه يتحرك بآلية :

عيدكم مبارك ..

يعرف جيدا كيف ينطق بها . وكيف يقف مؤدبا مرسلا عينيه من تحت جفونه المسبلة . يرمق صاحب اليد التي تمتد اليه وبها قطعة الحلو .. وما اكثر ما يكون صاحب اليد ولدا مثله .. مثله له ساقان ويدان ووجه . انما يرتدي بنطالا وحذاء وقميصا لهعقدة . وشعره مقصوص، مدهون ومصفف. وجيبه عامرة بقطع النقود الصغيرة وعلى فمه بقايا الكعك والشوكولاتة .

ويتحسس العشرة قروش التي اعطاها له والده البارحة ليشتري بها

ما يريد ــ كما قال ابوه ــ سيضيفها الى الاربعين قرشا الاخرى التي وفرها دون أن تشعر به امه من بيع الكعك لاطفال الحي صباحا . ستصبح خمسون قرشاً يذهب بها الى السينما مع اصحابه .

الفجر يبدو واضحا ، وثمة مدفع يدوي من بعيد يعلن عن العيد .. قام من فراشه وراته امه يقترب منها وفي عينيه سؤال . قال لامه وهو يعقد ما بين حاجبيه :

اماه .. هل نحن فقراء لاننا لا نستطيع تقديم الحلوى للاولاد ؟

هزت راسها ايجابا وهي تلقي ملحا في اناء اللحم . عاد يقول وهو يواجهها :

وهل نكون فقراء لو كان باستطاعتنا تقديم الحلوى للاولاد ..

هزت راسها نفيا . فعاد يدور حولها دون كلام . انما كان غارقا في التفكير ، ولم تعره امه اهتماما .. ولا حتى عندما انطلق فجاة من الكوخ الى الحي الساكن .

كانت الشمس ترسل اول اشعتها خلال غمام متناثر . اما الطرق فكانت مبلولة تناثرت فيها البرك الموحلة تشع منها رطوبة جعلته يرتعش وهو ما يزال في اول الدرب الضيق . تلفت حوله فلم يجد احدا من الاولاد . تبسم سعيدا .. لن يغادر الاولاد بيوتهم ولا حتى بعد ساعة .. سينتهي قبلها مما قرر ان يفعله .. توقف فجاة وقال لنفسه :

لنبدا بهذا البيت ..

قرع الباب وهو يخرج من صدره كيسا نظيفا من الورق :

عيدكم مبارك ..

فقالت امراة وهي تفتح الباب مندهشة :

ما شاء الله .. ما زلنا في الليل .

ــ عيدكم مبارك ..

لم تجد ما تفعله آلا أن تسرع الى علبة الحلوى فتسقط منها قطعتين في يده وتشيعه بنظرة استفهام وهي تراه يركض مبتعدا لا يلوي على شيء ..

لم ينظر الى القطعتين . ولم يفكر ان يضع واحدة منهما في فمه رغم تحرقه الى ذلك . اسقطهما في الكيس وهو يتوجه الى باب آخر موصد ..

عيدكم مبارك ..

وباب ثالث ورابع .. وعيدكم مبارك . والكيس يزداد وزنه في يده . ابتعد كثيراً دون ان يشعر بالتعب وطلعت الشمس واخذت الحركة تدب حوله . وصدمه طفل كان يجري وبيده مسدس يفرقعه في الهواء . وجد نفسه امام دكان فتح منذ دقائق . سارع الى صاحبه يصيح به :

اتبيعني علبة اضع فيها هذا الحلو .

واشار الى الكيس . قال البائع وهو يلقي اليه بعلبة من المقوى الملون:

ــ أتنفع هذه ؟

ــ بكم

ــ بلا مقابل ..

اختطفها منه وابتعد عنه راكضا دون ان يفكر بأن يشكره ..

وصل الكوخ ودفع الباب ووجهه يقطر سعادة وعرقا. كان أبوه والصغار متحلقين حول رقعة من المشمع يتوسطها اناء اللحم وتناثرت حوله الارغفة وعروق البصل الاخضر . صاحت الام وهي تجلس ايضا :

اين كنت يا شقي .. هيا تعال واتخذ مكانك فاننا لم نبدأ بعد .

قال وهو يمسح عرقه :

لست جائعا .

وافرغ ما بالكيس في العلبة . وفرك يديه سرورا وهو يراها تمتليء بقطع الحلو . قالت امه مندهشة :

من اين اتيت بكل هذا .

اقترب منها وقال وهو يهز العلبة وكلامه يتدافع من خلال لهاثه :

اماه .. لم نعد فقراء . سنقدم الحلو للاولاد .

لم تفهم شيئا مما يقول . وقبل ان تصيح به ثانية كان صغيران زريان يقفان بباب الكوخ ومد احدهما راسه وهو يقول بصوته المطوط :

عيدكم مبارك ..

سعى اليهما بالعلبة ومد بها اليهما فأخذ كل واحد منهما قطعة وانصرف ..

وما اسرع ما اخذ الاولاد يتوافدون كأن نفيرا انطلق يدلهم على هذا المكان.

ولم يعد يشعر بشيء حوله . حتى ولا بأبويه . لم يعد يشعر بانه زري الثياب يعشش الطين في حذائه . ولا بالحمى وهي تصعد الى راسه بعد ان لفحته رطوبة الصباح الباكر .

كان يملؤه احساس واحد .. بانه لم يعد فقيرا . انه يقدم الحلو للاولاد كما يفعل كل الناس .

القامشلي ــ سورية **محمد نديم**

عـادل زعـيـتر

بقلم « البدوي الملثم »

* * *

مولده ودراسته : رات عيناه النور في ــ نابلس ــ المدينة التي تميزت في العهدين العثماني والبريطـاني بشبابهـا المثقف الواعي ، واتم فيها دراسته الابتدائية ، ونال شهادة الاعدادية من سلطاني بيروت ودرس الآداب في سلطانـي استانبول وكان الاول في سائر مراحل دراسته .

في حقل الجندية : ويوم كانت الحرب الاولى متأججة اللظى دعي ــ عادل ــ للخـــدمة العسكريـــة فعين ضابطا احتياطيا عام ١٩١٦ ، وما ان اعلن الثائر الاول ــ الحسين بن علي ــ الثورة على الاتراك ، ودعا العــرب شيبا وشبانا للانخراط في صفوفها حتى هرب من الفرقة التي انتسب لها ، مجتازا ــ جبل العرب ــ في طريقه الى ــ ابي اللسن ــ للانضمام الى الامير فيصل بن الحسين، قائد الجيش العربي الشمالي ، وفي طريقه لقي المصاعب والاهوال ، وكان من الموت على قيد انملة ، لكنه تمكن من الوصول الى المعسكر العربي . ولما شعر رؤساؤه بهربه وانضمامه الى المتطوعين العرب حكموا عليه بالاعدام غيابيا !

من دمشق الى باريس : وانتهت الثـورة باندحار الترك وانتصار العرب وحلفائهم وفي عام ١٩١٩ مثل ــ نابلس ــ في ــ المؤتمر (١) السوري ــ الذي عقد في دمشق .

وفي عام ١٩٢٠ احتل الفرنسيون دمشق فابى الفقيـد الخلود الى الفراغ والجده فبارحها ، مع نفر مـن اخوانه الاحرار الى باريس وانتسب الى ــ كلية الحقوق ــ فـي جامعة باريس ، وفي مدينة النور هذه لقي ــ عادل ــ المفكر الكبير غوستاف لوبون فاحبه وهام بآثار قلمه ، خصوصا ما تناول فيها حضارة العرب .

اول الشوط : كان المرحوم فتحي زغلول ــ شقيـــق المغفور له سعد زغلول ــ اول من نقل الى العربية كتابي (روح الجماعات) و (سر تطور الامم) للعـلامة الفرنسي لوبون ووعد في الثاني بأن ينقل الى العربية كتابين آخرين للعلامة الفرنسي الآنف الذكر هما (روح السياسة) و (روح الاشتراكية) لكن وفاة ــ فتحي ــ حالت دون ذلك ، فخطر للفقيد زعيتر ــ ان يحمل بمفرده هذا العبء الثقيل ، فيقوم بترجمة الكتابين ، فعكف على قراءتهما فـي باريس بعـد قراءتهما في الاستانة وبادر اولا الى ترجمة (روح السياسة)

وبعد ان ترجم خمسـين صفحة ونيف تناهى اليه من صديق له مقيم في باريس ان كاتبا عربيا سبقه الى ترجمة الكتاب، وفي نيته دفعه الى المطبعة العربية فكف ــ عادل ــ عـن اتمام الترجمة وشرع في ترجمة (روح الاشتراكية) وبعد ثلاثة شهور فرغ من مشروعه واتسمت ترجمة الكتاب هذه بالسهولة والسلاسة وروعة الاسلوب !

وتطلع ــ عادل ــ الى كتابين آخرين بقلم ــ لوبون ــ هما (روح التربية) و (روح الثورات) فعكف على ترجمتهـا شعورا منه بأن امته العربية في أمس الحاجة الى لقـاح اجتماعي جديد ، وبعد عام انهى ــ عادل ــ عمله الجبار هذا بالاضافة الى دراسته الحقوق وقد انهاها بتفوق من جامعة باريس عام ١٩٢٥ .

الى الارض الملتهبة : وبعد ان تلقى ــ عــادل ــ شهادة الحقوق بيمينه عاد الى فلسطين ليحمل رسالة قومية شاقة، وليتولى الدفاع عن وطن مغصوب ، وشعب مغلوب .

وتطلع المسؤولون البريطانيون الى عربي كفء يسندون له منصبا رفيعا في ــ معهد الحقوق بالقــدس ــ فوقـع اختيارهم على الفقيه الواسع الاطلاع ــ عــادل زعيتر ــ فقبل بدوره حمل الرسالة ايمانا منه بان عليه حقا لامته ، وتولى تدريس الفقه الدستـــوري والــدولي والاقتصاد السياسي والمالي وقانون المرافعات المدنية والجزائية .

دفاعا عن الاحرار : وفي عام ١٩٢٩ اندلعت نار الثورة في فلسطين وتلتها بعد عام اضطرابات عصفت بالبلاد عصفا، وفي عام ١٩٣٣ اجتاحت ارض السلام ثورات عاتية مهرها عرب فلسطين والاقطار الشقيقة ارواحـا ودماء خضبت السهول والبطاح ، فكان ــ عادل ــ في طليعـة المحامـين الذين كرسوا انفسهم للدفاع عن المتهمين ، ومثل ــ نابلس ــ مسقط راسه ــ في كافة المؤتمرات الفلسطينية ، وفـي ــ اللجنة التنفيذية ــ وعالج قضية بـلاده ، وهي اظلـم قضية عرفها التاريخ ، باسلوب الفقيـه الواسع الآفاق ، وكتب ردودا اتسمت بالحكمة والحصافة وبعد النظر على كتاب « حاضر الاسلام » للسر ارثر واكهـوب ــ احـد المندوبين السامين بفلسطين ــ وعلى ــ وندل ويلكي ــ في كتابه « عالم جديد » !

ناسك الصومعة : ويئس الوطني المؤمن من العدالة التي ارادها لامته ، ومن الطمانينة التي تمناها لموطنه ، فهجر التدريس في ــ معهد الحقوق بالقدس ــ وعاد الى قواعده في ــ نابلس ــ متفرغا للترجمة على انها مصـدر هوايته ، وعاش بين شوامخ الكتب معالجا الادب والسياسة والاجتماع بقلم المفكر الناضج ، وزود ــ الخزانة العربية ــ بعيـون وامهات لم تعرفها من قبل (ام اللغات) في كافة عصورها !

---

(١) في ربيع عام ١٩٢٠ عقد هذا المؤتمر العربي الكبير في دمشق وبايع اعضاؤه المنتخبون ــ فيصلا ــ ملكا على سورية ، وكانوا من جميع الاقطار الشامية الداخلية والساحلية والجنوبية . (٢) من مقال (كان جامعة ومجمعا) للاديب الاستاذ وديع فلسطين . .

القاهرة

ما من احد

مر من هنا الا وتوهجت روحه بالغسق

ايتها المرأة

ايتها الكلمات التي لم تجتثها فؤوس الحطابين

ما من احد مر من هنا

الا وعلقت في اهدابه زهرة الياسمين

كل الكلمات التي لم يقلها احد بعد

قالتها ذات العيون العسلية

وهي تجتاز حدائق غسق العالم الاخير هذا

الغابات مفعمة بالحياة

والكمانات تخفق كالزمن

يا لها من موجة ،

توقظ هذه البحيرات الغارقة في الدخان

سننطلق يا اميرتي

سننطلق في سفينتنا البيضاء

الى حدائق النعمان

وستبقى على اهداب بعض كلماتك

حلاوة نور العالم

وانين هذا الغسق الذي يلف النيل

القاهرة — هند نوري

ولتدرك اية خسارة فادحة اصاب سهمها قلب ــ الفاد ــ بوفاة ــ عادل زعيتر ــ هاك اسماء الشوامخ التي سلخ في نقلها بقلمه الرصين البليــغ ثلث قرن مــن الفرنسية الى العربية ، فجاءت هرما من الموسوعات الكبرى :

روح الشرائع (جزءان) (لمونتسكيو) العقد الاجتماعي، اميل والتربية ، اصل التفاوت بــين الناس (لروســو) ، كنديد او التفاؤل ، الرسائل الفلسفية (لفولتير) ، حديقة ابيقور ، الآلهة عطاش (لاناتول فرانس) ، تلماك (لفنلون) ، ابن رشد والرشدية ، حضارة العــرب ، حضارة الهند ، روح الجماعات ، السنن النفسية لتطور الامم ، فلسفــة التاريخ ، روح التربية ، حياة الحقائق ، الاراء والمعتقدات ، روح الثورات والثورة الفرنسية ، روح الاشتراكية ، روح السياسة ، اليهود في تاريخ الحضارات (لغوستاف لوبون) مجالي الاسلام (لحيدر بامات) حياة محمــد (لاميل درمنغم) تاريخ العرب العام (لسيديــو) النيــل ، البحر المتوسـط ، كليوباترا ، بسمارك ، نابوليون ، ابن الانسان ، الحياة والحب (لاميل لودفيج) ابن خلــدون وفلسفتــه الاجتماعية (لبوتول) ، اصول الفقه الدستوري (لايسمن) الغزالي ، ابن سينا ، مفكرو الاسلام (جزءان) (لكرادوفو) .

« كان (٢) عادل زعيتر جامعة وحدها ، ومجمعا وحده ، كان في سباق دائم مع الزمن ، يخشى ان تنطلق روحه الى بارئها قبل ان يتم برنامجه المرسوم في الترجمة الموسوعية. كان من الخوارق والظواهر ، فمثل عادل زعيتــر ظاهرة لا تتكرر في كل قرن من الزمن !

فالرجل الذي يترجم لوبون ولودفيج وروسو ومونتسكيو لا يمكن الا ان يكون صنوا لهؤلاء جميعا ، يحاكيهم في المعرفة ومحيط الفكر ، ويفضلهم في اتقان فن لا يحسنونه ، هو الترجمة ، ويتفوق عليهم بتبخره في لغات متعددة كلهــا كالمحيط في انبساط ارجائه ! »

قال لي الشاعر الكبير الاستاذ عادل الغضبــان في يوم اربعين الفقيد ــ عادل زعيتر ــ :

« كان يقضي ايامه في مطابع ــ دار المعارف ــ مصححا ــ بروفات ــ الكتب العديدة التي يصدرها باستمرار او في الفندق الذي ينزل فيه مترجما كتبا جديــدة . . . ومــن الانصاف للحقيقة ان اقول لك ان الاستاذ زعيترا كان يعمل في اليوم الواحد اثنتي عشرة ساعة بلا انقطاع ولم اعرف في الشرق او في الغرب كاتبا يبــذه بنشاطه وحيويتــه وطاقتــه ! » .

لقد ادى ــ عادل زعيتر ــ رسالتــه الثقافية لامته فــي صدق واخلاص واقام صرحا ممردا من ترجمات روائــع الفكر الغربي ونام ــ امام المترجمين ــملء العين اذ كان باني دولة جبارة ، ذات اساطيل جرارة !

ذات يوم خاطب المفكر الاجتماعي الكبــير ــ جان جاك روسو ــ سادة جنيف عن دور ــ المواطن الصالح ــ وعــن الرسالة ــ التي يضطلع بها ويؤديها لامته بقوله :

« ايها السادة ! بما انني اعتقــدت انه لا يستطيع غــير ــ المواطن الصالح ــ ان يقدم لوطنه من التكريم ما يمكــن قبوله ، فانني عملت ثلاثين سنة لاكون اهلا لان اقدم اليكم تحيــة عامــة ! »

ولو جاء ــ عادل زعيتر ــ في العصر الــذي عاش فيه ــ روسو ــ لاشار الى ــ ابي عمر ــ بسبابته وقال لكهان المعرفة واعلام الكلمة :

« هذا هو ــ المواطن الصالح ــ الذي ملأ كل دقيقة من دقائق عمره بالعمل الصالح البناء » !

رحم الله (ناسك العلم) الذي عاش دهره بــين الحبــر والــورق !

وتغمد الله (راهب الفكر) في افياء نعيمه ، وقد لفظ انفاسه الاخيرة بين الحبر والورق !

عمان — « البدوي الملثم »



محمد سليم رشدان

في مسالك الدروب

بقلم محمد سليم رشدان
المحاضر في كلية الاداب بالجامعة الاردنية

منك .. نستفيد ..

لقيته بعد طول غيبة ، وكانت قد حجبته الغربة عني حيناً، فلم اسمع عنه خبراً ، ولا تلقيت منه اثرا . وكان صديقا وفيا ، ملأ حبه جوانب نفسي ، وارتفعت بيني وبينه الحجب ، فلا تحرز ولا تكلف ، منذ كنا اتراب طفولة ،ورفاق صبا ، وزملاء حداثة في مقاعد التعليم ..

وكان سلامه علي معبرا عن بالغ لهفته ، وصادق مودته، وعظيم شوقه . وكنت ابادله التحية بمثلها ، حين امسك بيدي الاثنتين يشدهما معنفا ، وهو يقول :

« كتبت اليك اكثر من مرة ، ولكني لم (استلم) منك جوابا على ما كتبت ، فاين صداقة العمر بيننا ؟!.. اني لن انسى لك هذا الجحود !!.. » .

قلت : « اما انك ارسلت الي كتبا ، فهذا ما لم اره مطلقا، ولعلها اضلت السبيل ، او لعلك لم توضح العنوان عليها . واما انك لم (تستلم) الجواب ، فهذه خطأ وصواب .. والصواب فيها انه لم يصل كتاب منـك اجيبك عليه ، والخطأ ان الكتاب (لا يستلمه) احد ، وانما (يستلم) الحاج الى بيت الله الحرام الحجر الاسود ، فيقولون فيه :

(طاف بالكعبة ، و (استلم) الحجر الاسود ..)

اي : قبله ، وانت لا تفعل ذلك بالكتاب حين يصل اليك ، وانما انت (تتسلمه) ، اي : تتناوله بيدك ، وهـذا هـو التعبير الصائب .. » .

فابتسم صاحبي وهو يقول : « ما شاء الله .. انـك اصبحت واعظا في غيبتي اذن ، من اين لك هذا ؟! من اين هذه الحكمة كلها يا اخي ؟! ولكن ، لا بأس عليك .. ومنك نستفيـد .. » .

واستأنف حديثه ليخبرني عن رحلته ، كيف بدات مـن مهجره ، الى ان اعاده الله سالما الى وطنه ، وكان مما قاله :

« قبل سفري بيوم واحد ، فاجأني اصحابي هناك بحفلة رائعة ، يودعونني بها ، فاضطـررت ان اعتـذر لكل مـن (اوعدتهم) في ذلك المساء ، واستمرت الحفلة الى ساعة متاخرة من الليـل ، اصبت فيهـا من الطعام والشراب ما سبب لي توعكا ، ولكن الله (اشفاني) منه مع الصباح ..

وكان موقف الوداع مؤثرا بيني وبين اصحابي هناك ، وخاصة حين كنت الوح لهم من النافذة ، وقد انطلقت بنا الطائرة على (المدرج) ــ بتشديد الراء ــ الـذي سارت عليه في طريقها الى التحليق .. » .

وقلت اعقب على حديثة : « الحمد لله على وصولك الينا بالسلامة، واما اصدقاؤك الذين اعتذرت اليهم ليلة الاحتفال، فانك لم (توعدهم) من غير شك ، لان الانسان (يوعـد) اعداءه حين ينذرهم بالشر ، واما الاصدقاء فانه (يعدهم) ، وذلك ما فعلته انت بالتأكيد ، لان (الوعـد) للصديـق ، و (الوعيد) للعدو ، وشاهد ذلك قول الشاعر :

وانك ان (اوعدتني) او (وعـدتني) لمخلف (ايعادي) ومنجز (موعدي)

واما ان الله (اشفاك) ، فهذا ما لست اتمناه لك ، ولا تتمناه انت لنفسك ، لان الانسان انما (يشفى) على الموت ، حين يصبح في النزع الاخير ، والذي حصل لك ان اللـه (شفاك) من المرض ، وله الحمد والشكران ..

وبقيت الثالثة ، ومـا هي بثالثة الاثافي انشاء اللـه ، وهي قولك ان الطائرة سارت على (المدرج) ــ بتشديد الراء ــ وهذا ما لا يمكن ان يكون ، لان (المدرجات) وهي قاعات ذات درج ، لا تكون الا في الجـامعات ، او فـي الساحات العامة ، والطائرة انما تسير فوق (مدرج) ــ بفتح الراء فقط ــ فتدرج عليه متسارعة ، وهي في طريقها الى التحليق ، وذلك هو الصواب دون سواه .. » .

ورايت صاحبي عند هذا المدى يمسك بكتفي يهزهما . وهو يقول : « ارجوك .. كفى .. كفى .. انك تغيرت كثيرا عما اعرف .. وسوف لا احدثك بشـيء ، حتى لا تظهرني امام نفسـي غريبا عن اللغة التي احببتها .. » .

فقلت وانا اودعه منصرفا : « لا عليك .. انما هي هفوات نقع فيها جميعاً ، وان الدالة بيننا حملتني على ان اصوبها لك ، وانت حر في ان تاخذ بها او ان تدع ، فليس لي عليك سلطان اقسرك به على ذلك .. » .

فقال وهو يكاد يستدير بكتفه ليمضي : « لا بل ناخذ بها جميعها ، حتى لا نتعرض عند الكتابة او الحديث ، لمنتقد مثلـك .. » !

انك مفرط في تفاؤلك ، اذا ما توهمت ان كل ما تسعى اليه سوف يكون في متناول يدك ، او يجب ان يكون في متناول يدك ، لا يحول بينك وبينه حائل ؟!..

متى كان هذا في حاضر او غابر ؟! متى كان يتهيأ للناس ان يحيلوا الى واقع ، ما تمتد اليه آمالهم من احلام وتمنيات ورغائب ؟! أجل ، متى كان ؟!

انهم لم يصلوا الى ذلك في يوم من الايام ، ولو كانوا قد وصلوا اليه ذات يوم ، لما قال قائلهم :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وانهم لو وصلوا اليه ، لخسرت الحياة اكثر ما فيها من مباهج ، وافتقد المكافحون عندها حلاوة النصر ، بعد مرارة الكفاح ، ولم يتطلع الكادحون الى روعة المفاجأة بالنجاح ، بعد الفشل المتعاقب في الكثير من التجارب ..

ان دروب الحياة لم تكن في يوم من الايام ، مفروشة بالورود ، معبدة مسالكها ، موطأة فيها الاكناف ..

ومن اين لها ان تكون على هذا النحو ؟! ان فيها الورود الغضة الندية ، الى جانب الشوك والحسك والسعدات ، وان فيها السهل الوطيء الممهد ، الى جانب العقبة العسيرة الكأداء ، وان فيها المعبر الآمن للسالكين ، الى جانب الفيافي الموحشة الرهيبة ..

وعلى هذا فالخير لم يكن خيرا ، الا حين قام الى جانبه الشر ، والنجاح لم يعرفه احد ، الا بعد ان عرف الى جانبه الفشل ، والامل والتفاؤل ، لم يعرفهما العارفون ، الا ليجعلوا منهما بلسما لليأس ، وعلاجا للتشاؤم ..

ولولا ذلك : لما رايت الجندي في ساحة المعركة ، حين ترجح كفة خصمه ، وتعصف من حوله رياح الهزيمة ، يثبت في موقفه ، تشبثا منه بخيط واهن من الامل ، قد يبذل حياته ثمنا لتحقيقه ..

ولما رايت الطالب ، يعيد الكرة مثنى وثلاث ، وهو يصرف ليله بكامله ، مكبا على دفاتره وكتبه ، مواليا ذلك سنة بعد سنة ، وقد هون عليه ان يتحمل الكثير من اوزار الفشل ، ما يلوح له من بارقات الامل بالنجاح ..

بل لما رايت العالم في مخبره ، يبذل الكثير من الجهد وهو يوالي تجاربه كرة بعد اخرى ، متحملا من مرارة الخيبة ، ما تضيق به النفوس ، وتتخذل عنده العزائم ، وذلك كله طمعا في ان تطل عليه المفاجأة ذات يوم بحلاوة النصر ، وبشائر الفوز ..

فما لك لا توطن النفس اذن .. على ان تعمل ما تعمله ، وانت ترقب له مثل ذلك من عواقب ؟! اننا جميعا لا نملك الا ذلك ، بل ان من سلفوا قبلنا مروا بمثل هذا من غير شك ، فأوحى اليهم ان يقولوا : « على المرء ان يسعى .. وليس عليه ان ينال .. » !

اتدري ماذا اتمنى ؟!

قالها وفي قسمات وجهه ابتسامة حالمة ، وعيناه تحدقان في ذلك البعيد اللامنظور ، كانما هو يستجلي صفحته ، ويتبين ما في خفاياه ..

قلت : ومن اين لي ان اعرف ماذا تتمنى ؟! وهل انا اعلم الغيب واستقرىء خوافيه ؟!

اجل ، من اين لي معرفة ذلك ، وهو مكنون بين طوايا نفسك ، هات اخبرني انت ، فلعلي اشاطرك مثل هذا التمني !!

قال : ان الذي اتمناه يسير هين ..

اتمنى ان ينطوي جانب الزمن ، فاصبح ذات يوم ، واذا انا اشاهد في بلدي مثل ذلك الذي ابصرته في دنيا الغرب ، وملأ آفاق نفسي اعجابا واستحسانا ..

اتراك تصدق لو زعمت لك ، انهم هناك يتركون اوعية الحليب على ابواب منازلهم ، فيأتي البائع يضع فيها المقدار الذي تعود ان يضعه ، ويدعها مكانها تحت انظار العابرين من السابلة ، لا يفكر احدهم ان يختلسها من مكانها ، كما لا يخطر على قلب ذلك البائع ، ان يغش في النوع ، او ينقص في الوزن ..

وما ادري .. كيف تصدق ذلك لو قيل لك ، وبائع الحليب عندنا ، تنظر اليه بملء عينيك ، وتراقبه بكافة جوارحك ، ومع ذلك فهو قد يخدعك بالوزن ، او يغبنك بالثمن ، او يغشك بالنوع !!..

ولعلك لا تغالي كثيرا .. حين تزعم ان هنالك الكثيرين من مثل بائع الحليب ، ممن يتصلون بربات المنازل ، ومعهم ما يحتجن اليه في حياة الاسرة مع صباح كل يوم ..

ترى .. هل يأتي ذلك اليوم ، الذي نبلغ فيه هذه الامنية ، ويتحقق هذا الحلم ، ام تمضي بنا قافلة الزمان ، ونفوسنا تتفطر حسرة وتلهفا ، على ان نبلغ مداه ؟!..

قلت : ان الغابرين اكدوا فيما اثر عنهم ، ان الانسان لم يباشر صنع شيء مما صنعه ، الا بعد ان افتقده ، والحت به الحاجة اليه ، وما دمنا نفتقد امرا من الامور – كائنا ما كان هذا الامر – فاننا بالغوه من غير شك ، في يوم من الايام ، قرب هذا اليوم ام بعد ..

ولسوف نبدا مقدمة الشوط من منازلنا ، على نحو ما صنع اولئك القوم ، نبداه من الاسرة ، كيف يجب ان تنشىء هذا الزرع النامي من اجيالنا الصاعدة ، فتدلهم على مواطن الخطأ والصواب ، وتغرس في اعماق نفوسهم الوازع والرادع في آن واحد ..

وعندها ، يأتي احدهم ما يأتي ، ويدع ما يدع ، بوحي منهما دون سواهما . وبذلك وحده نصل الى المدى الذي طالما هفت اليه الابصار ، منذ جرى على لسان شاعرنا القديم حين قال :

لا ترجع الانفس عن غيها   ما لم يكن منها لها .. زاجرا !!

احمد خليفة .. في ذمة التاريخ

رجل علم وتربية وادارة ..

عرفته ذات يوم، ونحن نغادر المدينة الملفعة بالخضرة في أعالي كنعان، (صفد) الجميلة الخالدة، ووجهتنا (البيت المقدس)، ليعود كلانا الى عمله هناك، وجلسنا في مقعد واحد، نتبادل اطراف الحديث طيلة الطريق.

ولمست في حديثه سعة اطلاعه، وبعد افقه، وطيبة نفسه. واعجبتني فيه براعة فائقة في الحديث، واستعداد فطري للمرح وخفة الظل، وحدثني خلال ذلك - والطريق طويل - عن ذكرياته في (صفد)، ومغامراته مع الاحداث من اترابه في وادي الطواحين، ووادي الليمون، وسفوح الجرمق، وقمة كنعان، وفي عين الزيتون، ورجوم الصوان، وعين الحمراء، وعند مسالك الطريق الى (عكبرة) .. وكان معظم اترابه آنذاك من البارزين في (صفد)، او ممن اسندت أليهم المناصب المرموقة في حكومة الانتداب.

وتكررت بيننا بعد ذلك لقاءات، فاجتمعنا في المؤتمر الثقافي الذي اقامته جامعة الدول العربية في (بيت مري) في لبنان، وجلست معه في اكثر من لجنة واحدة، فكانت له فيها المواقف المشهودة، وكثيرا ما كان يناظر ويحاور، فيفحم اولئك الذين يعارضونه في الراي. ولعل الاحياء ممن كانوا معنا في تلك اللجان من وفد فلسطين، امثال الدكتور اسحق موسى الحسيني، ومعالي الاستاذ موسى ناصر، والاستاذ رفيق التميمي، والاستاذ وصفي العينتاوي، والاستاذ رفيق اللبابيدي، وسواهم .. لعل هؤلاء جميعا ما زالوا يذكرون مواقفه يومذاك ..

وما نسيت فلن انسى جلسة في احدى امسيات المؤتمر، جمعتنا ببعض البارزين من وفود الدول العربية، امثال بهجت الاثري من العراق، وعز الدين التنوخي من دمشق، ومحمد سعيد العريان واحمد حسن الزيات وعبد الوهاب عزام من مصر، وكيف كانوا يفيضون بالثناء عليه، وهم لا يكتمون اعجابهم بمواقفه ..

واجتمعت معه بعد ذلك مرات ومرات، فكنا معا في دورتين متعاقبتين من دورات كلية الاذاعة، التي كانت تنظمها دار الاذاعة الفلسطينية، ويشرف عليها مسؤولون لهم اقدارهم وخبراتهم، وتصريفهم الحكيم، الذي ترفعوا فيه عن الاحقاد الصغيرة، فاستغلوا كل جهد ادبي اثبت وجوده في البلاد ..

وكان ما يقدمه الاستاذ احمد خليفة في هذه البرامج، جهدا فكريا قيما، يجد من اقبال الفئة الواعية، ما يتجاوب صداه في رسائل كثيرة، كانت تحول اليه من دار الاذاعة، وعلى زاويتها اليسرى: «كلية الاذاعة - اعرف وطنك». وكان ذلك هو عنوان المادة التي يقدمها مساء الثلاثاء من كل أسبوع.

ثم عرفته مفتشا للمعارف في (مدينة القدس) العاصمة،

وكثيرا ما زرته في مكتبه، فالمح من حسن تصريفه للامور، ما امتلىء به اعجابا بيني وبين نفسي، فاجدني اردد:

«ان الفضل في ادارتك الحكيمة هذه، انك ارتقيت الى هذا المنصب، مبتدئا من هناك، من البيئة المتوسطة بين ابناء الشعب، فلم يتسرب الى نفسك داء الغرور، ولا احسست بنقص عوضته بالتعالي المصطنع، والشعور الزائف بالعظمة ..» !

وكانت النكبة، وخرج ابناء فلسطين من بلدهم، فاذا هو محاضر في دار المعلمين بحلب، وكنت آنذاك محاضرا في دار المعلمين بدمشق، والتقينا ذات امسية في منزلي، وكان معنا آخرون من زملاء العمل في دار المعلمين الدمشقية، وكان موضوع حديثنا: (اعداد المعلمين كيف يجب ان يكون)، وتسلم هو زمام الحديث، وتناول مثالا يبني عليه استشهاده من شعر شوقي يقول فيه:

حماماتان .. في الحجاز حطتا .. على فنن

وبدأ يقرب الشعر ويشرحه، يعطي بذلك انموذجا للمعلم كيف يجب ان يعلم طلابه الصغار، وتناول الكلمات واحدة اثر واحدة، حتى وصل الى كلمة (حطتا). واخذ يدلل على ان الشاعر لو اراد أن يستبدلها بسواها لما استطاع، فما يؤدي المعنى على حقيقته غير هذه اللفظة دون سواها ..

واستمر في حديثه، وانظار الرفاق شاخصة اليه حتى انتهى. ثم قال وهو يبتسم: «اعذروني اذا انفردت في الحديث، ولعل سبب ذلك حرفة التعليم ..».

واشهد صادقا انني ما اعجبت ببراعة معلم، مثل اعجابي ببراعته في ذلك اليوم، وما اراني مغاليا لو قلت انني لمحت في وجوه من معي من الزملاء، ما يعبر عن شعورهم بمثل ذلك ..

واستدعي الاستاذ خليفة من سوريا، ليشارك في تنظيم شؤون التعليم في ليبيا، فاستجاب لذلك بدافع من شعوره العربي الصادق، وعاد من هناك لينتقل الى حقل جديد عليه، هو حقل البنوك والمصارف، فتولى البنك العربي، ثم البنك الاهلي السعودي وكلاهما في القاهرة.

وحين عقد مؤتمر الكيان الفلسطيني، لم يتخلف الاستاذ خليفة عن حضوره، ولم ينس المؤتمرون ان يقدروه قدره، وذلك حين اسندوا اليه رئاسة لجنة (التوعية والتربية).

المغامر

لانني مغامر اجهده الرحيل والسفر
مهنته الطواف في البحار
غنيت حزن السيف والقيثار .
لانني بحثت عن نهاية تفرحني
عن مدن لا تطرد الزوار
اذا اتوها عندما يقترب القمر
مجللا بالصمت والسواد
لانني وددت ان اكون في بغداد
اغنية في شفة الباعة
تغازل الخضرة في عيون شهرزاد .
لانني بحثت عن امرأة تعشقني
هاربة من سطوة السلطان
في شفتيها المر واللبان
والشمس والنبيذ والطاعة
اضعت ما احمل من اسرار .
لانني وددت ان اسير في المطر
وان اغوص في دجى البحار للقرار
مهرجا في سلم الزمن
اسرف في مقالبي ، لامنح المحن
اشواق بحار الى زوجته ،
في اول الربيع .
لانني بحثت عن حقيقتي في خيمة الاحزان
تجربة التأريخ في قصائدي
اشرعة منفية من دونما ربان
سقطت فوق ركبتي زاحفا ،
تخنقني الدموع
لابتدي من حيثما انتهيت .
لانني سموت فوق جسر عالمي القديم ، اسال
الجموع
عن سرها لعلها اهتدت وما اهتديت
سقطت بين البحر والصحراء
اضعت حتى السيف والقيثار .

بغداد — **فاضل العزاوي**

وكانت للاستاذ الراحل آثار قيمة ، بين ادب وبحث وتاريخ ، وذلك عدا الكتب المدرسية . وقد نشر الكثير من ابحاثه هنا وهناك، في المجلات الفلسطينية، مثل : (المهماز) في حيفا ، و (الخميس) في يافا ، و (الشباب) في القدس . والمجلات الادبية والتربوية والثقافية ، الصادرة في سوريا ولبنان والقاهرة ، وكان يحتفظ بها جميعا .

واما محاضراته القيمة ، فقد القى الكثير منها في الاندية الثقافية ، والرياضية ، في القدس ونابلس وطولكرم وحيفا وعكا ، وصفد ، واذاع الكثير منها في محطات القدس والشرق الادنى ولندن .

وكان قد حدثني ونحن في دمشق عن كتاب يعده عن تجاربه التعليمية وابحاثه التربوية ، وقد سجل فيه آراءه بصراحة وامانة وتجرد ، وهو يطمع ان يتفرغ يوما لطبعه مع كتابين آخرين ، احدهما سجل فيه صورا حية عن مأساة فلسطين ، اودع فيها مشاعره واحاسيسه، ومهد لها بدراسة تاريخية شاملة ، تكمل بها عناصر الموضوع .

والثاني جمع فيه محاضراته التي القاها خلال دورتين من دورات كلية الاذاعة في فلسطين ، التي كانت تجريها دار الاذاعة هناك ، وكان يقدمها تحت عنوان : « اعرف وطنك » . وقد يكون هذا هو العنوان الذي اختاره لهذا الكتاب . .

واما الثالث فهو مجموعة محاضراته الادبية والاجتماعية والتاريخية ، التي كان يلقيها في مختلف الاندية الثقافية والرياضية في فلسطين ، والتي كان قد اذاعها من دار الاذاعة الفلسطينية ، واذاعة الشرق الادنى ، واذاعة لندن.

وقد الح بعد حديثه هذا الى انه في سبيل اعداد او جمع كتاب رابع ، يتناول فيه تاريخ فلسطين بوجه عام ، وتاريخ (قلعة صفد) بوجه خاص . بحيث يورد تاريخ بناتها والذين توالوا على حكمها ، والاحداث التي وقعت من حولها . . وما ادري اين بلغ به المدى من ذلك الكتاب ، ثم لا ادري الى اين وصل في اخراج كتبه التي اوردت ذكرها ، فقد انقطع اللقاء بيننا ، منذ غادر دمشق الى ليبيا .

ذلك هو الاستاذ احمد خليفة . . رجل العلم والادارة والتربية ، الذي ابقى لنفسه من الذكر الحميد ، في فلسطين وسوريا وليبيا ومصر ، ما يخلد ذكره في اطواء القلوب .

والذي انبت بجهده وتوجيهه ورعايته ، من الغراس النامية ، بين اجيالنا الصاعدة ، في كثير من مدن فلسطين - يوم كانت لنا مدن - وفي حلب الشهباء ، وطرابلس الغرب ، من يلهجون بالثناء عليه ، ويكنون له التبجيل والاحترام والتقدير . .

يا اخي ابا العبد . . يا ايها الرجل الطيب . .

ان من حقك على المسؤولين في كل بلد عربي تركت فيه اثرا من آثار جهدك وجهادك ، أن يشاركوا في تأبينك ، وذلك تقديرا منهم للعمل المخلص ، وتكريما للعلم والمعرفة والكفاءة عند احياء ذكراك .

اجل ، يا ابا العبد . . ان من حقك على هؤلاء المسؤولين ، ان يساهموا في الاشادة بذكرك ، فقد بذلت عمرك بسائر ايامه ، تكرسه من اجل صالح المجموع من حولك ، وعملت مخلصا في بناء الجيل الصاعد ، فكنت بناء مبدعا ، لا تدخر وسعا من اجل ان تبالغ في اتقانك ، وتحكم في بنيانك . .

ايها الاخ الراحل . . انك اصبحت اليوم في ذمة التاريخ، ومن حقك على هذا التاريخ ان ينصفك ، وان يذكر لك ما أنت له اهل من التكريم ، والتقدير ، ما دام يحتسب لكل عامل مخلص ، ما ينجزه خلال مرحلة العمر من اعمال . .

يا ايها المكافح الباسل في ميدانك ، يرحمك الله . .

عمان — **محمد سليم رشدان**

وقفت « كاميليا » على حافة الرصيف في الشارع العمومي ، وفي عينيها فرحة تكاد تقفز من بين جفونها . وكانت لها ضفيرة واحدة على ظهرها لا تفتأ تتحرك يمينا وشمالا ، وكأنها تشارك صاحبتها الفرحة . وكانت عيناها تدوران في سرعة تجاه السيارات المندفعة في جنون . وكانت ترتدي فستانا ابيض ناصعا قصيرا جدا ، يكاد يشبه في تفصيلته فراشة قد نشرت جناحيها فوق زهرة . واذ بدأت حركة السيارات تخف قليلا ، حتى شدت من نفسها وبدأت في التأهب للعبور على وجه السرعة . دارت رقبتها في الاتجاهين بسرعة ، ثم انطلقت تجاه الرصيف الآخر وكانت في جريها السريع الضيق ، كقطة صغيرة يطاردها كلب كبير مسعور . وعادت تنظر مرة اخرى الى السيارات ، بعين فيها تحد كبير ، ثم واصلت سيرها بخطوات قصيرة ، هي اشبه بالقفز منها الى المشي ، وفي راسها امنية ما زالت تدور فيها منذ ان غادرت البيت .

طلبت ان تشتري « شيكولاته العفريت» ولكن امها رفضت في اول الامر ، ثم لم تلبث ان لانت امام الحاحها ، فاعطتها قرشا ، وحذرتها من عبور الشارع .

رات « كاميليا » نفسها ، حرة في الشارع الواسع ، والناس من حولها. وهي تعلم تماما ان هذه الشيكولاته تباع هناك ، في دكان صغير بجانب مدرستها ، انها المرة الاولى التي تخرج فيها وحدها بدون «عم علي» البواب، وليس ذلك فقط ، لقد عبرت الشارع ايضا . وهمت ان تصيح من الفرحة، ولكن وجودها بين الناس جعلها تكتم فرحتها ، فخرجت على شكل حركات غير متزنة من ساقيها .. وكلما تذكرت انها عبرت الشارع وحدها ، شعرت انها كبيرة . . كبيرة جدا ، ككل هؤلاء السيدات اللاتي يسرن وحدهن . ولاول مرة تدرك الفارق الضخم ، بين حجمها الذي يشبه العصافير ، وبين هؤلاء النسوة وهن يخطرن في أحذية كعبها عال . وحين اقتربت من الدكان، توقفت قليلا ، وفكرت في العودة ، لقد خشيت ان يراها وحدها « عم متولي » ، فيخبر « عم علي » بذلك . الا ان رغبتها الاكيدة في الحصول على الشيكولاته ، جعلتها تندفع بصورة لا ارادية اليه . وقفت امام باب الدكان ، واخذت تتأمل كل انواع الحلوى المرصوصة في العلب الصغيرة والبرطمانات . فوقعت عيناها على العلبة التي فيها مرادها ، فانطلق لسانها مناديا :

ــ عم متولي .. عم متولي .

كان « عم متولي » يجلس في الداخل ، على كرسي وامامه آخر قد مد عليه ساقيه . وكان في اغفاءة ،



شيكولاته العفريت

بقلم مصطفى ابو النصر

فما ان اخترق الصوت اذنيه حتى فتح عينيه في شيء من الدهشة ، ثم قام متثاقلا ، فوقعت عيناه على « كاميليا » وهي واقفة خلف الواجهة الزجاجية :

ــ اهلا وسهلا ، ايه اللي جابك دي الوقت ؟

لكنها لم تهتم بالاجابة على السؤال.

ــ اديني شيكولاته العفريت .

دفع الضلفة الزجاجية ، وامتدت يده الى العلبة ، وكانت هي تتأملها من الخارج . وحين انسحبت يده بواحدة ، ادخلت يدها في جيبها لاخراج القرش .. ولكن .. ولكن ليس هناك قرش ، واخذت تغوص بيدها في جيبها الوحيد ، محاولة ان تدخل اصابعها الرفيعة في اركانه التي بدت عميقة جدا في ذلك الوقت، ولكن ليس هناك قرش .. وخرجت يدها فارغة منكسرة ، وانقلب وجهها ، وشابته صفرة ، فاخذت عيناها الصغيرتان تجولان حولها على الارض، واصابها شيء من الخجل ، ولم تعد تقوى على رفع راسها والنظر الى «عم متولي» . وكان هو يقف خلف الواجهة الزجاجية ، يتأملها وعلى شفتيه ابتسامة خالية من اي ضيق وسألها :

ــ ايه .. في ايه يا « كاميليا » ؟

تسلل سؤاله الى اذنيها ، فبدا صوته بعيدا جدا عنها ، وتململت في وقفتها ، ولم ترفع راسها وهي تجيبه بصوت منخفض مخنوق :

ــ القرش وقع مني .

فابتسم قائلا :

ــ وما له .. خديها برضه ، وبكره ابقي هاتي قرش تاني .

ترددت ، واخذت تتأمل قدميها الصغيرتين ، وكانت قد لصقتهما ببعض ، وهمت ان تجري .. انها تريد ان تختفي من امامه ، ولكن « شيكولاتة العفريت » ؟ ما الذي ستقوله لامها؟ وارتفعت ذراعها اليمنى طويلة ناحلة خجلى ، وامتدت عبر الواجهة ، وكانت تنظر من تحت جفنيها الى يده ، وتناولت الشيكولاته، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ، ومضت مسرعة .

حينما ابتعدت عن الدكان ، عادت الى مشيتها الطبيعية ، ولكنها كانت اقل حياة مما كانت عليه من قبل . اخذت تتأمل الشيكولاتة ولكن منظرها لم يكن كما كانت تعتقد . بدت ثقيلة، ورقتها الحمراء داكنة كئيبة ، عليها صورة شيطان اسود تتطاير من عينيه شرارات صفراء . كان هذا المنظر قبل ان تشتريها ، او بالاحرى، قبل ان تأخذها هكذا دون مقابل ، تبدو لذيذة ، وشكل ورقتها جميلا ،



في عالم الخطيئة

اخي .. لي هنا ، في المدى الابعد   ظنون ، تؤرجح بي مرقدي
فتبعثني فوق عمر الزمان   وقيد المكان ، وسر الغد
طليقا ، شرودا ، خفيف الوشاح   الى اللانهايات ... والسرمد
بقلب شقي ، وروح أسي   وعمر ، كعمر الدجى ، انكد
فاحمل سري الى فوق فوق   السماوات ، للعالم الاسعد
فازرعه في كروم الاله   وما شئت يوما ، فلي موردي

* * *

واهبط .. اهبط بالاحرف الدا   معات ، الى العالم الاسود
كهوف من الصمت ، تاه الزمان   على دربها الاوعر .. الاجرد
يجر عليها ظلام الوجود   ظلالا .. ظلالا ، بلا مقصد
بها غير ناس ، بها اذرع ،   بها اصبع من يد في يد
بها بعض ساق ، كأفعى تلف   اليها هوى ، مبهما ، في غد
بها اعين ، غائرات ، بها ما   بها ، في انتظار ، بلا موعد
بها الصمت ، الصمت كالعاصفات   يشير الى الظن ، لا ترقد
تهيم بدنيا ، بلا شيء ، الا   رؤى الامل المبهم المقعد

* * *

وتنهد هيئة انسانة   الى جانب الدرب ، لا تهتدي
يكاد يمر عليها ركاب   الزمان ، يروح ولا يفتدي
الى نصف فوق ترى عينها   وما فوق للامل المجهد ؟!
ضباب يلف باطوائه   ضبابا ، وتيه بلا مرشد
واكتب ، اكتب بالنور في جبهة   الفوق ، يا نفسها ، اصعدي
ويا ظن ، كن في خفايا الضمير   هوى راعشا لغد ارغد

* * *

وتحمل اعماقها فكرة   وتحلم آمالها في غد
وتبني الى فوق احلامها   الى اللانهايات ، والسرمد
ونور ، ونور كدفق اللحون   ويا امسها مت ، فلترقد
لقد عاشك اليأس ، والسقم والخوف في رهبة اللحد ، والملحد
ولكنها اليوم تبني ، فينبعث العمر للنور ، للمولد
وتنجب ايامها نبعة   تنفر من عودها الاجرد
واحمل سري الى فوق فوق السماوات ، للعالم الاسعد
فازرعه في كروم الاله   وما شئت يوما فلي موردي

حمص   بسام جندلي

وهذا الشيطان يبدو اضحوكة تبعث في نفسها السرور . واخذت تجول بعينيها في الارض باحثة عن القرش.

ترى اين سقط منها ؟. وتذكرت قفزاتها السريعة وهي تعبر الشارع ، لا بد انه اندفع من جيبها. . ووجدت نفسها تقف نفس الموقف السابق ، تريد العودة الى منزلها ، وفكرت في وضع الشيكولاته في جيبها ، ولكنها تذكرت القرش ، فاطبقت عليها باصابعها بشدة . وكانت في هذه المرة ، اكثر ثباتا ، واخذت رقبتها تتلفت يمينا وشمالا : السيارات المجنونة تنطلق امامها كالعفاريت ، وظلت ضفيرتها الوحيدة حائرة على ظهرها حتى تباعدت السيارات ، فاندفعت جارية الى الرصيف الآخر ، وكانت يدها تطبق في حرص وحذر على قطعة الشيكولاته .

القاهرة   مصطفى ابو النصر

قصة اكتشاف الكونغو

بقلم الدكتور جمال مرسي بدر

***

في القرن الخامس عشر الميلادي كانت امجاد البرتغال البحرية تتابع في الطريق الى ذروتها التي بلغتها بعد قليل حين طاف بارتلوميو دياز بالقارة الافريقية مكتشفا راس الرجاء الصالح وحين أتم بعده ماجلان رحلته البحرية حول الكرة الارضية .

ومن خفايا التاريخ التي تفوت الكثيرين ان للاكتشافات البحرية البرتغالية صلة بالصراع بين العرب والافرنج حول الاندلس ولئن لم يكن ذلك الصراع سبب تلك الاكتشافات فقد كان مناسبتها ونقطة البداية فيها على الاقل فيما يتصل بالشواطىء الافريقية التي كانت حتى ذلك الحين مجهولة من العالم الغربي .

ذلك أن يوحنا الاول ملك البرتغال (١٣٨٥ — ١٤٣٣) بعد ان تمكن من اجلاء العرب عن اقاليم مملكته رنا ببصره الى الشاطىء الافريقي الذي كان قاعدة عرب العدوة الافريقية (المغرب الاقصى) في الغارات التي استمروا يشنونها على البرتغال فقرر يوحنا ان يؤمن ظهره باحتلال مدينة سبتة المواجهة لجبل طارق على الشاطىء الافريقي فارسل اليها في سنة ١٤١٥ حملة تمكنت من احتلال المدينة وكان على راس تلك الحملة الامير هنري الابن الاصغر للملك وهو الذي عرف في التاريخ باسم « هنري الملاح » لاهتمامه بالاكتشافات البحرية وتشجيعه عليها وتنظيمه لها رغم انه هو نفسه لم يركب البحر الى ما وراء سبتة .

وحين احتل هنري الملاح سبتة لم يكن معروفا من شاطىء افريقيا على المحيط الاطلسي سوى جزء صغير ينتهي عند مكان يقع في منتصف المسافة بين الدار البيضاء واغادير كان يعرف عند البرتغاليين باسم راس ناون ومعنى هذا الاسم « لا » : لا ملاحة فيما وراء هذا المكان وليس بعده الا المجهول الذي تحفه المخاوف والاخطار .

والواقع ان المحيط الاطلسي « بحر الظلمات » كان عند الملاحين حتى ذلك العهد موطن اسرار لا تصل الى كنهها عقولهم ومظنة هلاك لا ينجو منه الا من سلم الله ونسجوا حوله من الحكايات والاساطير ما يبعثه في النفس الاحساس بالرهبة والخوف من المجهول ، ومن ذلك ما كان شائعا في ذلك الوقت من ان المحيط الاطلسي الى الجنوب من ذلك المكان تجتاحه الزوابع والاعاصير العاتية التي تعترض سير السفن بل ان مياه المحيط في تلك الاصقاع الجنوبية تغلي وتفور بسبب حرارة الجو حتى ينقلب بحر المحيط الى مستنقع تتصارع في مياهه الضحلة وحوش خرافية تتهدد السفن واهلها بابشع الحتوف اذا ركبوا الغرر الى تلك الجهات .

على ان الامير هنري وقد تملكه حب الاكتشاف لم يكن بالذي تقف في سبيله تلك المخاوف او ينكص على عقبيه أمام تلك الاساطير فبدأ منذ سنة ١٤٢٠ يوجه الحملات الكشفية الى الشواطىء الافريقية جنوب ذلك الحدالمعروف ولم يكن نصيب اولى تلك الحملات من النجاح بالقدر الذي كان مرجوا فقد اقتصرت على اكتشاف جزيرة « ماديرا » وبعض الجزر الاخرى القريبة من الشاطىء الافريقي على أن هنري استمر في ارسال رجاله جنوبا سنة بعد سنة متعرضا في ذلك لانتقاد أهل الحل والعقد في مملكته البرتغال الذين كانوا يرون تلك الحملات غير ذات جدوى ويعتقدون ان الشواطىء التي كان يريد هنري اكتشافها اقاليم صحراوية جرداء جعلتها اشعة الشمس المحترقة غير قابلة لسكنى البشر .

على ان هنري كان له راي آخر وكان مدفوعا في التمسك برايه بدوافع ثلاثة حب الكشف والطمع في ثروة تلك الاقاليم ثم خدمة الكنيسة بالوصول الى تلك الاقاليم الجنوبية التي كان يقال ان المسلمين قد بسطوا سلطانهم عليها وانهم على صلة تعامل وتجارة مع سكانها .

ورغبة من هنري في تأمين اكتشافاته المحتملة ضد اية منافسة من دولة مسيحية اخرى ارسل الى البابا مارتن الخامس سنة ١٤٣٠ سفيرا يعرض عليه امر الاكتشافات التي يعتزم الامير القيام بها اعلاءا لكلمة الدين ويطلب منه مرسوما يعطي مملكة البرتغال الحق المطلق بلا منافس ولا شريك في كل الاقاليم التي يتم اكتشافها فيما بين افريقيا والهند وقد عاد السفير الى اميره وفي يده المرسوم البابوي المطلوب .

تتابعت الحملات البحرية بعد ذلك واحدة وراء الاخرى وكانت كل منها ترتاد الشواطىء الافريقية وتلقي مراسيها في جهات غير آهلة بالسكان ثم تعود ومعها نماذج من نباتات تلك البقاع واحجارها ولكن ذلك لم يكن ليرضي هنري الذي كان يهمه ان يثبت أن الاقاليم التي يريد اكتشافها مسكونة باقوام تستطيع بلاده ان تتاجر معهم وان تبشرهم بالدين المسيحي وتضمهم الى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، غير ان ذلك لم يتيسر الا في سنة ١٤٤١ حين تمكنت الحملة التي كان يقودها انطونيو جونز الفيس من اقتناص رجل وامراة من سكان تلك الاقطار الافريقية وعادت بهما الى البرتغال عودة المنتصر وكانت تلك بداية تجارة كئيبة كانت تباشرها سفن البرتغال مع الشواطىء الغربية لافريقيا تبيع لاهلها منتجات البرتغال وتعود محملة باعتات من الافريقيين تبيعهم رقيا لاهل البرتغال من النبلاء والاغنياء ، وفي سبيل حماية هذه التجارة حصل هنري من البابا الخامس في سنة

١٤٥٤ على مرسوم بابوي آخر يكفل للامير احتكار التجارة مع شواطىء افريقيا الغربية من سبتة الى سيراليون .

على ان الحدث الاكبر في قصة هذه الاكتشافات وقع بعد وفاة هنري الذي مات في سنة ١٤٦٠ بل بعدها بزمن طويل في عهد الملك يوحنا الثاني حيث كان قد اتم ارتياد الشواطىء الافريقية حتى خط الاستواء فارسل الملك في سنة ١٤٨٢ احد رجاله « ديوجوكاون » (وتعريب اسمه . يعقوب الكلب) على راس ثلاث سفن لاستكشاف الشاطىء الغربي لافريقيا جنوبي النقطة التي كانت الاكتشافات قد وصلت اليها حتى ذلك الحين .

تجاوزت سفن « ديوجو كاون » خط الاستواء وسارت في المحيط بازاء الشاطىء الافريقي الى الجنوب اياما طوالا الى أن شوهد لون المياه الزرقاء وقد ضرب الى الحمرة وخالطتها نباتات واخشاب فلم يشك البحارة البرتغاليون انهم على مقربة من مصب نهر عظيم فهل هو الفرع الغربي للنيل ؟ ذلك ان جغرافيي ذلك العصر كانوا يعتقدون ان لنهر النيل فرعا يصب في المحيط الاطلسي فلما اكتشف مصب نهر السنغال ظن القوم انه هو فرع النيل الغربي ثم انتقلت هذه الفكرة الى نهر النيجر عند اكتشافه . والآن دارت ظنون القوم حول نهر الكونغو الذي وصل البرتغاليون الى مصبه للمرة الاولى في هذه الرحلة ، وقد استمرت هذه الفكرة الخاطئة عالقة بالاذهان الى ان بددتها نهائيا الاكتشافات الكبرى التي اماطت اللثام في القرن التاسع عشر عن منابع النيل واثبتت انه لا صلة لنهرنا العظيم بالانهار الافريقية الاخرى التي تصب في المحيط الاطلسي .

القى ديوجو كاون مراسيه عند مصب النهر الكبير ولم يحاول هذه المرة التوغل في الداخل او الاتصال باهل البلاد بل اكتفى باقامة عمود من الحجر كعادة البرتغاليين في كل الاقاليم التي يكتشفونها ، ونقش عليه ما يلي :

« في سنة ٦٦٨١ من بدء الخليقة الموافقة لسنة ١٤٨٢ لميلاد سيدنا المسيح أمر الحاكم العظيم القوي الملك يوحنا الثاني ملك البرتغال باكتشاف هذه الارض وباقامة هذا العمود بواسطة ديوجو كاون حامل الدرع في قصر الملك . »

وقد جرت على هذا العمود الاثري احداث نستطرد اليها قبل ان نعاود «قصة اكتشاف الكونغو» ذلك ان الهولنديون حطموه في احدى غاراتهم على تلك الشواطىء في سنة ١٦٤١ فاقيم مكانه بديل له لم يكن حظه في البقاء اكثر من حظ سابقه اذ تحطم تحت نيران مدافع الانجليز في سنة ١٨٥٢ وتوجد الآن في متحف ما وراء البحار بلشبونة قطعتان من العمود الثاني البديل هما البقية الباقية منه .

لم يطل ديوجو كاون المكث عند مصب النهر بل بادر بالابحار جنوبا فوصل الى نقطة على شاطىء انجولا الحالية اطلق عليها اسم راس لوبو وأقام فيها عمودا ثانيا تسجيلا لاكتشافها باسم ملك البرتغال ثم نشرت سفنه أشرعتها البيض ذات الصلبان الحمر واقلعت على عجل الى البرتغال لتزف الى ملكها بشرى الاكتشاف السعيدة .

قوبل نبأ اكتشاف مصب النهر الكبير باهتمام زائد في البرتغال اذ كان معناه أمكان التوغل في داخل البلاد عن طريق النهر ومكافأة لديوجو كاون على نجاحه رقاه الملك من رتبة حامل درع الى رتبة فارس ثم وجهه في سنة ١٤٨٤ في رحلة ثانية الى نهر الكونغو الذي كان البرتغاليون يسمونه آنذاك نهر العمود ــ نسبة الى العمود الحجري المنقوش المقام عند مصبه ــ والذي كان اهالي البلاد يسمونه « نزادي » (وهي كلمة تعني البحر أو كل تجمع ضخم للمياه) وقد حرّف البرتغاليون ذلك الاسم الى زاير وقد ظل نهر الكونغو مدة طويلة يعرف بهذا الاسم الاخير لدى الاوروبيين .

كان مع ديوجو كاون في رحلته الثانية عدد من رجال الدين الكاثوليك اذ كان العزم معقودا هذه المرة على الاتصال باهل البلاد ولذلك اصطحب معه كذلك بعض اهالي غينيا بقصد الترجمة بين اهل الكونغو وبين البرتغاليين .

وصلت السفن البرتغالية الى مصب النهر ودخلته صاعدة وسرعان ما شاهد ركاب السفن جماعة من اهل البلاد على شاطىء النهر لم يكن يبدو عليهم اي مظهر عدائي لهؤلاء الدخلاء القادمين من بعيد فتوقفت السفن ونزل اهل غينيا الى الشاطىء للتفاهم مع الوطنيين ولكن تعذر ذلك لاختلاف اللغتين على ان اهل البلاد لم يترددوا في الصعود الى سفن البرتغاليين وبانتشار النبأ زاد عدد القادمين منهم من ضفتي النهر لمشاهدة هؤلاء الرجال البيض وسفنهم الكبيرة وامكن بطريقة او باخرى ان يفهم عنهم البرتغاليون ان لهذه البلاد حاكما كبيرا يقيم على مسيرة ايام في الداخل في بلدة تسمى « مبانزا كونغو » (ومبانزا تعني في لغة اهل البلاد مدينة او مقر الحكم) وان ذلك الحاكم يحمل لقب (ماني كونغو) بمعنى صاحب الكونغو او ملك الكونغو .

عزم ديوجو كاون على ارسال المبشرين المصاحبين له الى الملك في عاصمته وشجعه على ذلك ما لمسه من شعور اهل البلاد الطيب الذين كان استقبالهم له بعيدا كل البعد عن مظاهر العداء فسار المبشرون محملين بالهدايا الى الملك ومعهم جماعة من اهل البلاد وكانت الرسالة التي يحملونها هي أنهم موفدون من قبل ملك كبير على بلاد بعيدة اسمها البرتغال وان ذلك الملك يعيش في سلام ووئام مع باقي الملوك وانه يرغب في ان يوطد بينه وبين ملك الكونغو اواصر الصداقة وان يدخل معه في علاقات تجارية يعمم نفعها الطرفين فضلا عن دعوى الملك وقومه الى الدين المسيحي والانضواء تحت راية الكنيسة الكاثوليكية .

وصل الرسل الى عاصمة الملك التي تبعد عن مكان رسو سفنهم ثلاثمائة كيلومتر فاستقبلهم الملك احسن استقبال وسرّ بهم ايما سرور وتعجب هو وقومه من لونهم الابيض وملابسهم الغريبة وظلوا في ضيافته اسابيع طويلة وكلما طلبوا الاذن بالرجوع استبقاهم لسروره من محبتهم

حتى ظن ديوجوكاون انهم هلكوا او انهم اسرى عند الملك ولما كان لا بد من عودته الى البرتغال فقد رأى أن يأخذ معه عددا من اعيان أهل البلاد الذين كانوا يزورونه على ظهر سفينته كرهائن ضمانا لعودة مبعوثيه الى الملك فاقلع ذات يوم بعد ان احتبسهم في السفينة وافهم من كان على الشاطىء من قومهم انه عائد بهم سالمين بعد خمسة عشر هلالا .

وهكذا انتهت رحلة ديوجو كاون الثانية الى الكونغو وعند وصوله الى لشبونة تلقى الملك يوحنا الثاني اعيان الكونغو المصاحبين له بمظاهر الحفاوة وسره انهم بداوا يفهمون اللغة البرتغالية ويتكلمونها وان لديهم استعدادا طيبا لتقبل الدخول في الكاثوليكية وظل هؤلاء في بلاط ملك البرتغال شهورا طوالا وتمت مراسم عمادهم واطلقت عليهم اسماء مسيحية جديدة وكان تنصرهم فاتحة لانتشار المسيحية في وسط افريقيا السوداء .

وفي هذه الاثناء كان المبشرون الموجودون لدى ملك الكونغو قد نجحوا في اطفاء نار غضبه على البيض الذين خطفوا اعيان رعاياه اذ اكدوا له حسن نوايا البرتغاليين وضمنوا له عودة رجاله في الاجل المضروب او قريبا منه فلما وصل ديوجو كاون الى الكونغو في رحلته الثالثة سنة ١٤٨٧ لم يكن استقباله الودي يختلف عما كان في المرتين السابقتين .

في هذه الرحلة الثالثة كان على ديوجو كاون ان يتوجه هو نفسه الى عاصمة ملك الكونغو سفيرا من قبل ملك البرتغال وقد تقبل الملك هذه السفارة بقبول حسن وسره بوجه خاص عودة رجاله سالمين مكرمين وقد قصوا عليه عن بلاد البرتغال وعن بلاط ملكها من القصص ما انشرح له صدر الملك كما سمع منهم ما حدثوه به عن عقيدتهم الجديدة ووقع ذلك منه موقعا حسنا حتى انه عزم على اعتناق المسيحية وقرر ارسال احد اعيان مملكته ممن كان قد سافر الى البرتغال مع ديوجو كاون سفيرا من قبله الى ملك البرتغال يطلب منه ايفاد رجال الدين المسيحي في ارجاء مملكته .

وحين عاد ديوجو كاون من سفارته الى حيث كانت سفنه راسية عند مصب النهر وجد عنده سفن زميله بارتولوميو دياز وقد عاد مظفرا من رحلته حول افريقيا التي اكتشف فيها راس الرجاء الصالح وقد رأى القائدان البحريان ان يستكشفا نهر الكونجو فسارا فيه الى ان عاقتهما الشلالات القريبة من موقع مدينة ماتادي الحالية فكرا راجعين ولا تزال حتى الآن على صخرة بشاطىء النهر قرب ماتادي نقوش تسجل باللغة البرتغالية تاريخ هذه الريادة واسماء بعض من اشتركوا فيها .

ابحرت سفن كاون ودياز معا نحو لشبونة ومع اولهما سفير ملك الكونغو الى ملك البرتغال وهي اول سفارة افريقية الى خارج القارة حمل لنا التاريخ اخبارها وبها افتتحت صفحة الاتصال بين اوروبا وافريقيا السوداء ، ذلك الاتصال الذي بدا سلميا وتجاريا ثم انقلب بعد قرون تسلطا واستعمارا عانت منهما بلاد القارة السوداء ما عانت الى ان بزغت عليها شمس الحرية من جديد في عصرنا هذا الحديث .

ليوبولدفيل — جمال مرسي بدر

عتاب ...

قسما بناعس مقلتيك
والقلب تشعل ناره
أدميته بالصد لما
تخشى يكون لخافقي
ما ملت عن حبي اليك

ودمي يسيل بوجنتيك
ايماءة من حاجبيك
أن اشحت بناظريك
الباكي صدى في مسمعيك
مع الهوى ... الا اليك

* * *

أكذا تعذب من حلفت
قد حن من شوق اليك
رحماك لا تك قاسيا
أنا عاتب ؟ لا والذي
أنا غاضب ؟ لا والذي
ادركت اسرار الوجود
انا والفؤاد وما ملكت

بانه « الغالي » لديك
وقد بكى وجدا عليك
وابسط لعبدك راحتيك
القى مصيري في يديك
بالسحر كحل مقلتيك
بغفوة في ساعديك
ودائع في قبضتيك ...

لندن — سعيد العيسى

من « العروة الوثقى »



حسن فتحي خليل

تشايكوفسكي وغرامه العجيب

بقلم حسن فتحي خليل

هو بيتر اليتش تشايكوفسكي موسيقار روسيا الكبير ، الف الكثير من قطع الباليه والسيمفونيات وغيرها من فروع الموسيقى ، واشتهر اسمه في الخافقين ، ولكنه للاسف نال هذه الشهرة الواسعة بعد موته .

ولد عام الف وثمانمائة واربعين . وحاول دراسة القانون في شبابه ، لولا ان شجعه الموسيقار المشهور انطون روبنشتين على دراسة الموسيقى لما راى من ذكائه وفطرته ما يشير بنبوغه فيها . ولما اتم دراسته عين مدرسا للموسيقى وتاريخها بمعهد موسكو للموسيقى ، وكتب خلال هذه الفترة الكثير من قطعه الموسيقية .

ولقد قاسى تشايكوفسكي في حياته الكثير من المتاعب ، فتزوج عام الف وثمانمائة وسبعة وسبعين ، ولكنه سرعان ما انفصل عن زوجه بعد ذلك مباشرة ، فاثر هذا الحادث في حياته واورثه الشقاء كما اورث صحته العلة .

ولم تكن موارده المالية لتكفل له التفرغ التام للتأليف ، اذ كانت تشغله امور حياته ، ولكنه ما ان وجد الفرصة المواتية حتى استقال من وظيفته وتفرغ للموسيقى .. حين وضعت السيدة فون مك ثروتها رهن مشيئته .. ولهذا قصة طريفة غريبة في موضوعها ، فريدة في نوعها تبدأ كما يلي :

كان الموسيقار انطون روبنشتين يوما في زيارة للسيدة ناديفا فون مك بقصرها ، وهي ارملة ثرية ، كان زوجها يقوم بانشاء الطرق الحديدية في انحاء روسيا ، فجمع بذلك ثروة كبيرة تركها لزوجه واولاده من بعده .

جلس روبنشتين الى البيانو وعزف سيمفونية جديدة عنوانها « العاصفة » .. وتوالت الانغام ، واذا بالسيدة ناديفا تجد نفسها مندفعة للانتباه اليها ، تتابعها في تطوراتها وتحس معها بالمشاعر العميقة التي تزخر بها . وما ان انتهى روبنشتين من العزف حتى سألته عن اسم المؤلف ، فاخبرها انه صديق له يدعى تشايكوفسكي ، رجل نحيف ، خجول ، عبقري في حوالي السابعة والثلاثين من عمره ، يعمل مدرسا للموسيقى بالمعهد ، نال الشهرة التي كان ينتظرها في موسكو ، الا ان موارده المالية قليلة تقف حائلا بينه وبين التفرغ للفن الذي يجيده ونبغ فيه .

وابدى رغبته واستعداده لان يأتي به ليزورها ويقدمه اليها ، الا انها رفضت ذلك فهي تخاف الوجوه الجديدة ، ولا تختلط بعد وفاة زوجها الا باصدقائها القدماء فقط . وجعلت تقول انها انما تعجب بالموسيقى فقط ولا يهمها معرفة المؤلف نفسه . ومع هذا فقد خرج روبنشتين يومئذ والسرور يملأ جوانحه ، فقد امكنه ان يحصل على ما كان يرجوه ، الا وهو اعجاب تلك السيدة واهتمامها بموسيقى صديقه الخجول ، المحتاج الى المادة لتعينه في حياته ، فلقد امكنه ان يلاحظ قوة تأثير هذه السيمفونية التي عزفها عليها .. كانت قابعة في ركنها ، يبدو عليها كأنها وقعت فجأة في قبضة هوى قوي جارف .

والعجيب انها كانت يومئذ في الخمسين من عمرها ، امرأة متعددة الابناء تغدق عليهم كل حبها وعطفها ، ولكنها كانت ما تزال محتفظة بجمالها ورشاقتها ، بالرغم من تلك الموجة من الحزن الرقيق التي تغشاها فتزيدها جمالا ، وهي رقيقة العاطفة مرهفة الحس ، شريفة ، ليس لها سوى اولادها توليهم عنايتها ، فلم يلحق بسمعتها اي سوء ، ولم تتناقل الالسنة عنها سوى الخير كل الخير .

ولكن روبنشتين لم ييأس ، خاصة بعد ان لاحظ ذلك الاهتمام منها بموسيقى صديقه ، وحدث نفسه ان نقودها يمكن ان تعين تشايكوفسكي وتشق امامه الطريق ، فما زال بها حتى اخبرته بأنها ستكتب الى صديقه ، وما زال يتكرر رجاؤها الا يحضره اليها ، فاخبرها ان تشايكوفسكي ايضا رجل خجول بطبعه يعزف هو ايضا عن الوجوه الجديدة عليه .

وما ان انفردت ناديفا بنفسها حتى كتبت الى تشايكوفسكي تعرض عليه شراء بعض مؤلفاته الموسيقية ، فأرسل اليها ما تطلبه . كانت تستمع الى موسيقاه في جو مشبع بالعاطفة . انها تبعث فيها احساسات نبيلة تجعل قلبها ينبض بخفقات لذيذة ، فشجعته دائما ودفعت له الكثير .

واذا بع هو ايضا يضع كل عواطفه فيما يرسله اليها من القطع الموسيقية ، وهي تشعر بذلك ، ويزداد اعجابها حتى تشعر اخيرا انها قد احبت الموسيقى والرجل الذي الفها ، ولم يعد في طاقتها ان تفرق بينهما .

واذا نظرنا الى تشايكوفسكي وجدناه هو الآخر لا يرغب في رؤية تلك السيدة التي تشجعه باموالها وتوحي اليه بموسيقاه . وتفهم روحه كما لم يفهمها احد من قبلها .

ولقد ساله روبنشتين يوما : «لماذا لا تحاول رؤيتها ؟ . . انها ما زالت رشيقة بالرغم من سنها ، ولا يمكنها ان تفصح تماما في خطاباتها عن شعورها نحوك » .

فأجابه قائلا : « اني اضع في موسيقاي مجموعة احساساتي وشعوري نحوها » .

بينما كانت هي تقول اذا ما وجه اليها نفس هذا السؤال : « انا لا اريد اكثر من ذلك ، ففي موسيقاه كل ما اطمع فيه من عاطفة » .

وامتلات حياتها بالاحلام التي كانت تراودها في شبابها ، وازدهر الجمال والحب في قلبها كلما تنصت الى موسيقاه . ولقد اعترفت لاصدقائها القليلين الذين كانت تختلط بهم ان تلك الموسيقى التي توحي هي بها الى تشايكوفسكي تؤثر فيها تأثيرا بالغا ، حتى انها لم تعد تهتم بأي شيء عداها في حياتها . لقد امتلأ قلبها بتلك العاطفة حتى سالت في جوانب نفسها وحياتها ، فركزت كل اهتمامها فيها وتركت املاكها الى وكلائها يديرونها ، واولادها الى مربيتهم ترعاهم ، وهجرت اصدقاءها القدامى، ووضعت كل ما تملك من نقود تحت تصرف ذلك الموسيقار الذي كان يتقبلها شاكرا ويجد فيها الفرصة التي كان ينتظرها منذ زمن طويل لينصرف أنصرافا تاما لفنه الرفيع .

ولقد الحت عليه مرات ليرسل صورته اليها ، فحقق رغبتها وارسلها اليها ، وجلست تشاهدها ، رات وجهه الهادىء بعينيه العميقتين اللتين تتوقدان ذكاء وعبقرية .. رات ذلك الرجل الذي يخاطبها بانغامه الخالدة ، فيبعث فيها العواطف التي ما كانت تصدق ان قلبها ما زال في قدرته ان يخفق بها .

ولما طالت هذه الصلة الروحية بينهما اذا به يسألها يوما في خطابات حبه اليها « متى سنتقابل ؟ » ولكنها كانت تؤجل ذلك دائما ، لقد وجدت السعادة في هذه الصلة الغريبة فحسب ، وهي لا تطلب المزيد من ذلك .. كفاها هذا ... »

وهي تكتب اليه بعد الحاحه : « ارى الا موجبا للقائنا ابدا » . ولم يتأثر هو لذلك ، فهو أدرى الناس بها وبخلجات نفسها ، وما من احد يمكنه ان يفهمها كما يفهمها هو ، وأعذارها وحججها تجد كل القبول لديه ، فهي تقول: « انها تلقاه في موسيقاه ، وما الذي يمكنه ان يقوله لها اكثر مما تعرفه وتحس به من تلك الموسيقى ؟ وكيف يتسنى لها ان تعبر عن عاطفتها نحوه ببضع كلمات جامدة تافهة ..؟ كلا .. دع كل شيء كما هو ، ففي دنيا الموسيقى نتحرك .. ونلتقي .. ونتحدث في حرية ، وكأننا نعيش في النعيم الخالد .. اما اذا التقينا فلن نشعر بنفسينا سوى شخصين في هذا القطيع البشري المسكين التعس الفاني » .

واشتعل حبه لها ، وتألقت عاطفته نحوها ، فظهر ذلك جليا في موسيقاه ، بينما كانت ناديفا فون مك سادرة في احلامها . لقد كرست كل حياتها لتتلقى صوره وخطاباته وموسيقاه ، ونسيت كل شيء ، حتى فلذات كبدها اصبحوا مجرد خيالات واشباح تراها من بعيد ، فهي تشعر دائما انها تسبح في النور .. نور تلك العاطفة النقية الطاهرة التي اخذت بمجامع قلبها .. ومع هذا كله فان رغبتها في لقائه كانت تضعف على مر السنين .

وتوهجت عبقرية تشايكوفسكي ، ذلك الرجل الخجول الدقيق الاحساس ، فكان يؤلف ، ويؤلف مستوحيا محبوبته التي لم يلقها ، والتي جعلته يعيش في جو خيالي غريب تتابعه خطاباتها اينما ذهب ، تلك الخطابات التي اذا ما تاخر احدها سرعان ما يستحوذ القلق على نفسه ، فلا تهدأ الا بعد ان تصله كلماتها فتنزل بردا وسلاما على قلبه ونفسه ... فيقوم هو الآخر ليكتب اليها وليبادلها كلمتي « اني احبك » التي زخرت بها خطاباتهما الاخيرة .

والغريب انه مع هذا كله .. لم يرغب احدهما في رؤية الآخر !

لقد اكتفى كل منهما بهذا القدر الذي راى فيه منتهى سعادته ، هو يوحي اليها بعواطفها النبيلة .. وهي تلهمه موسيقاه الخالدة .

وكتبت له ناديفا يوما تقول : « لماذا لا تذهب الى ايطاليا ، اليس هو حلم كل العشاق ان يكونوا متقاربين في ايطاليا؟» .

كانت تملك (فيلا) جميلة في فلورنسا ، ولما ابدى موافقته ، ذهبت اليها واستأجرت له مثوى صغيرا بالقرب من ممتلكاتها واعدته له .. ونظمت الاثاث وخاصة البيان ، والخدم والزهور ، واشرفت بنفسها على كل شيء ، محاولة ان يستوفي كل سبل الراحة التي ترجوها له ، ثم كتبت اليه تدعوه لذلك المثوى بعد ان انسحبت هي الى فيلتها .

ودخل تشايكوفسكي مسكنه الجديد ، كانت الزهور تملأ جوانبه، وقد فاح عبيرها فملأ نفسه وخياله بها وبمحبوبته.

ومع انهما كانا يعيشان متقاربين الا ان احدهما — مع ذلك — لم ير الآخر ، غير انه كان يلذ للسيدة فون مك احيانا ان تضع خمارا رقيقا على وجهها وتنفلت في الظلام بالقرب من مثواه لتشاهده من بعيد مكبا على البيان يؤلف موسيقى حبه اليها .

وظلا على تلك الحال الى ان حدث يوما ان كانت تجتاز الطريق بعربتها ، فاذا هي امامه وجها لوجه ، فملكتها الدهشة والحيرة . ولكنها عرفت كيف تنقذ الموقف ، فكل ما فعلته ان هزت راسها اليه في ايماءة رقيقة ، ثم تابعت العربة سيرها في سرعة ، وظل هو في مكانه جامدا ..

ذاهلا حائرا ..

ازداد تعلقها به بعد هذا اليوم ، لقد احست ان حبه لها لم يصبه الضعف او الوهن بالرغم من رؤيته لها ، كان ما يزال يجد فيها امراة احلامه ، كانت عواطفه نحوها تحيي فيها نضارة جمالها التي كانت في طريقها الى الزوال قبل هذه الصلة الروحية الغريبة .

ولكن تشاء المصادفة احيانا ان يقع نظر كل منهما على الآخر ، ومع هذا لا يتقدم احدهما للقاء الآخر . فقد حدث يوما ان كانت تجلس في مقصورة باحد المسارح وكان هو يجلس في الصالة ، فرآها كما راته وتعلقت عيناهما ببعضهما ، ولكنه لم يصعد اليها ومع ذلك فقد انحصر اهتمام كل منهما في الآخر ولم يشعرا بما جرى على خشبة المسرح .

وكانت هي من جانبها تحس بوطء السنين التي تنسلخ من حياتها وتتطلع في حسرة الى الفترة القصيرة الباقية لها ، ولعل ذلك هو السر في انها لم تكن تطمع في المزيد من السعادة بلقائه ، خوفا من أن تفقد بهذا اللقاء روعة ذلك الحب العجيب الذي يملأ عليها حياتها فتفقد بعده كل شيء .

وعاد الى روسيا فاتبعت معه نفس الطريق التي سلكاها في ايطاليا ، اعدت له مسكنا في ممتلكاتها بالقرب منها وعاشا يغرفان من لحظات حياتهما الهانئة .

ويوما دعته لزيارة قصرها بعد ان غادرته هي ، ليرى الحجرات التي تجلس فيها وهي تحلم به وتتخيله ، وليرى الاماكن التي تحتفظ فيها بصوره وخطاباته وموسيقاه .

وهكذا عاش ذلك الغرام الفريد ما يقرب من عشرة اعوام . وكانت ناديفا فون مك قد تعدت الحلقة السادسة من عمرها واصبحت جدة ، فقد انجبت ابنتها فتاة لطيفة ، بينما كان تشايكوفسكي قد بلغ الخمسين عاما تقريبا ..

وكان الناس يبتسمون في دهشة من ذلك الغرام الذي لم يروا مثله من قبل ، حتى حفيدتها الصغيرة حاولت يوما ان تجعل عربتيهما تلتقيان في الطريق ، فما أن وقع نظر ناديفا عليه حتى ارخت خمارها على وجهها فتملكه الخجل واستدار ثم ارسل اليها يعتذر ويقول انها كل حياته .

والحقيقة ان تشايكوفسكي ، ذلك الرجل الذي قاسى من القدر بمقدار في شبابه ، عوضته الحياة بما لم يكن يحلم به من السعادة في ذلك الغرام الشاذ ، الغرام الروحي النقي الطاهر .. ولكنه كان ما يزال يصر على الا يرى محبوبته ، مكتفيا بما يعتمل في نفسه من شتى الاحساسات والمشاعر الغامضة التي توحيها اليه فيرسلها انغاما تتجاوب في نفسها .

غير انها حين احست يوما بقرب سقوطها في هوة الفناء ارسلت اليه تدعوه ليتحدثا معا .. ولكنه رفض !.

وعلى ذلك كان يلوح للجميع انه حتما ستكون لهذا الغرام نهاية سعيدة ، وان النجاح من نصيب ذلك الازدواج الروحي . ولقد كان يمكن ان يتحقق ذلك حقا لولا ما جبلت عليه المراة من نزق وطيش مهما تقدمت بها السن ، فقد هدمت بيديها ذلك التمثال الذي كان يرمز الى الخلود ، وطوحت بذلك المثل الكامل الذي كان يعجب به الجميع .

فقد اصيب احد ابناء ناديفا بمرض خطير ، واذا بها تستيقظ من غفوتها فجأة ، وتنظر حولها . لقد اضاعت عشرة اعوام من حياتها وجزءا كبيرا من ثروتها .. في سبيل حلم .. مجرد حلم .. وتركت اولادها وواجبها وكل شيء .. واستبدت بها تلك الثورة التي جرفتها فجأة .. وفي غمرتها كتبت اليه خطاباً قاسيا تلقي فيه كل اللوم عليه ، وتتهمه بانه قد حطمها وافقدها ثروتها ، وان كل شيء بينهما قد انتهى .. انتهى الى الابد !

فكتب اليها يقول : « انها الآن وقد فقدت ثروتها كما تقول واصبحت مساوية له ، ولم تعد المادة حائلة بينهما فعليهما اذاً ان يتبادلا حبا حقيقيا عميقا ، فكل ما تبقى من حياته هو ملك لها هي فحسب » .

ولكنها اغلقت كل شيء دونها وابنها الذي كان يعاني سكرات الموت ، ورفضت في اصرار ان تكتب او ترى او تتحدث الى الرجل الذي شغل حياتها وقتا طويلا .

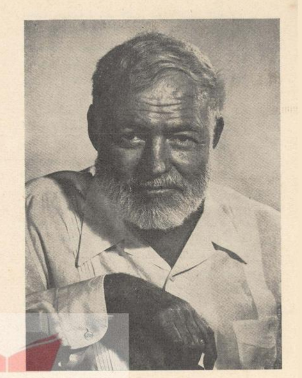
عصف الحزن بنفسه ، ولم يجد بدا من ان يسافر الى باريس لكي ينسى ويسلو ذلك الغرام الذي كانت نتيجته جرحا عميقا في قلبه وفي نفسه .. وهناك بدا يكتب سيمفونيته الخالدة التي اطلق عليها «السيمفونية السادسة» .

بداها في فبراير عام الف وثمانمائة واثنين وتسعين وانهاها في اغسطس من نفس العام ولقد كتب اجزاءها الاولى في اربعة ايام فقط ، كانت الانغام تملأ راسه ، والالم والحزن يطغيان على روحه . لقد بداها دون اي ترتيب موسيقي خاص ، وتركها لغزا لا يدري احد ما يقصده بها .. انها تتحدث عن مجموعة متباينة من العواطف والاحساسات والمشاعر التي كانت تتضارب في نفسه بعد هذا الحادث الذي اثر في مجرى حياته .. تركها لشعور سامعيها يكيفونها حسب ما تتجاوب به انفسهم مع نغماتها وماتوحيه اليهم من عواطف شتى .

وعاد تشايكوفسكي الى روسيا عام الف وثمانمائة وتسعين ، ولكنه اصيب بالكوليرا التي انتشر وباؤها في روسيا ذلك العام ، اذ شرب كوبا من الماء دون ان يغليه ، ولا يدري احد ان كان قد تعمد هذا او انه لم يفطن الى ذلك حقا .. ولحقته المنية فاستراح من آلامه وشجونه .. بعد عشرة ايام فقط من عزف سيمفونيته السادسة في دار الاوبرا الروسية والتي كتب له من بعدها الخلود .

وهكذا انتهت قصة حبه .. غريبة كما بدات .. زهرة بلا جذر ولا ثمر ..

الاسكندرية — **حسن فتحي خليل**



ارنست همنغواي

همنغواي.. خلاصة عمل

لالفريد كازن ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة

تطورت قدرية الجيل الضائع على ايدي ارنست همنغواي فاصبحت اطرف انواع النثر الفني في العشرينات وادقها مقصدا . فما عناه اي . اي كومنغز بكتابه العظيم (الغرفة الهائلة) الذي يتناول الحرب ، جعل الفرد الانساني الذي عاش ما بعد الحرب ، بصفته جنديا في اول الامر ومواطنا اعتياديا فيما بعد ، وفنانا الآن ، جعله سخرية الكون الخاصة . وكما كتب وندهام لويس مؤخرا فان بطل همنغواي هو ذلك الانسان الذي « جرت الامور معه على هون . » اما الحياة بالقياس الى همنغواي فقد غدت - بالدرجة الاولى - مهمة تقتضي الحفاظ على الذات بالحفاظ على فن الانسان والعمل على تجديده . فكان الفن هو الغاية القصوى ، ولعله هو موئل الدفاع الوحيد . وفي مجتمع انصب على الفرد (بسهامه) لا تصبح فيه المعاناة محتملة الا بالمحافظة على الذات ، وبذا يمكن للمرء ان ينبىء عن شجاعته . فالكتابة لم تكن تسلية ، بل طريقة من طرق الحياة ، اذ كانت حصيلة اليأس والعداء ، كما ان بصيرتها انبثقت من عذاب الجهاد . ومع ذلك فلا يمكن ان توجد الا بتنقية نفسها ، ولا معنى لها اذا لم تفض بالحق والصدق . ان الكاتب لا ينجح اذا لم يثبت تفوقه على الظروف ، واهميته باعتباره فنانا تكمن في نزاهته وشجاعته وارادته على احتمال المكاره . ان رؤية همنغواي للحياة كما حدثنا عنها جون بيل بشوب هي ضرب من الملاشاة المستمرة . « لما كانت الاراده لا تستطيع شيئا حيال الظروف ، فالخيار غير موجود ، ولذا فالامور التي ترتضيها الحواس جيدة ، وما عدا هذا السجل من الرضا ، فكل شيء يخضع للتخفيض من قيمته على ايدي الطبيعة القاسية بغير رحمة . »

والشيء البارز فيما يخص همنغواي من اول الامر ، انه لم يصلب عوده في نطاق هذا القانون الجامد ، او انه لم يعترف بذلك .

ان خلفية اول قصصه (في زمننا) تمثل آخر حد من حدود فتوته في مشيغان ، تلك المقاطعة الجبلية ذات الغابات والبحيرات ، وهو يبدو ازاءها ذلك الشاب الفضولي المقفل الشفتين ، الصعب المراس ، الفظ الجاف ، فضلا عن قليل من الكآبة . وهذا الصبي المتجهم في (في زمننا) له ذهنية اخذت مكانتها الثابتة ، بعد ان افعمت خشونة وتقشفا بعناية ودقة . وقصص شبابه هذه التي وضعت في قبالة رتابة الحرب وشرورها ، قدمت قيمة متساوية الى القارىء عن رعب غابات مشيغن واهوال الحرب ، وتلك امور تلخص ثقافة همنغواي باسرها . واهميتها (اي اهمية القصص) تكمن في عدد القضايا التي ظنها الشاب همنغواي قضايا مسلما بها جدلا ، لانها كانت استجابات مضغوطة لمحيط وحشي ، استجابات بدت مناسبة للجميع . وكما ان الحرب في (وداع للسلاح) تبدو اقل اهمية من المشاعر التي اثارتها ، كذلك المناظر الطبيعية لا تعني شيئا الا للشاب الذي تعلم ما تعلم منها (في زمننا) . كان نقد المجتمع بالقياس الى همنغواي يتخذ طابعا عميقا ، في العقد الثاني من عمره ، طابعا جعله يتصور الحياة شيئا مغرقا في التجريد ، ولذا فهو يبخس القيمة غريزة غير مأمون الجانب عادة . انها (اي الحياة) نتيجة ملازمة للاعمال العنيفة والنوازع الميكانيكية : فهي تمثل وحشية الرجال في غابات مشيغن وذلك الزوج الهندي الذي يقطع حنجرته بعد مرأى زوجته وهي تمزق جدار بطنها بسكين لتستخرج وليدها ، ووحدة المراهقين وزهوهم والملاكم السكير الذي يقطع الطريق جيئة وذهوبا . وتحت الذكريات المحلية التي تشوبها صور قطاع الطرق ومصارعة الثيران ، تحت كل ذلك تكمن الحرب .

« جلس نك ازاء جدار الكنيسة ، الى حيث سحبوه لينجو من نار الرشاش الملعلع في الشارع . ساقاه البارزتان متخاذلتان . لقد اصيب في العمود الفقري . كان وجهه وسخا يتقاطر منه العرق ، على الرغم من ان الشمس

اضاءته . وكان النهار حارا جدا . وفي ظل البيت رقد نمساويان اثنان رقدتهما الاخيرة بين الانقاض . وعلى قارعة الشارع موتى آخرون . ادار نك راسه بعناية ونظر الى رينالدي وقال : سيد رينالدي . سيد . لقد صنعنا انت وانا سلما (صلحا) منفردا » .

فوجه بطل همنغواي الصقيل ، الذي يصبح ، من خلال مراحله المختلفة ، شبيها بوجه آل كابوني ، انما هو وجه عقد من الزمن ، وهذا ما يظهر في سيماء سلسلة متتابعة من الجنود ومصارعي الثيران والمكتشفين وقطاع الطرق والثوريين الاشقياء ، وهو ما بدا جليا واضحا على بطنه في (في زمننا) . ان رد الفعل الاول للبطل كان تعجبا اعقبه ذهول مباشرة ، فالحياة شأنها شأن الحرب ، في مرحلتها الاولى ، ثقيلة متجهمة خالية من النعمة ، وهذا هو الموضوع المثار في انتهاك حرمة ليكس كوتس من قبل خادمها الاجير . ثم تصبح الحرب سلسلة من المتناقضات الهزلية .

« كان الجميع سكارى . كان كل افراد الكتيبة سكارى، وهم يسيرون في طريقهم وسط الظلام . ظل الملازم راكبا حصانه بين الحقول ومتحدثا اليه : انا سكران . اقول لك يا عيني انا سكران كثيرا ، ان السفر في ذلك الطريق مضحك » .

ثم تصبح القضية برمتها قضية قذرة ، شلة من اللاجئين في الوحل ، والمطر مستمر لا ينقطع وامراة تحمل طفلها . « ظل المطر يهطل طوال فترة اخلاء المكان من السكان . » وبتجميع الاهوال الصارخة ، امكن التوصل الى المرحلة النهائية ، حيث النهاية كانت قساوة خادعة غشاشة .

« كنا في الحديقة بمونز . جاء بكلي الشاب مع حارسه من عبر النهر . الالماني الاول الذي رايته تسلق حائط الحديقة . انتظرنا حتى ان وضع ساقه على الحائط ثم رميناه . كان مدججا بالسلاح فاخذه العجب كل العجب وهذا ما ظهر عليه ، لكنه هوى الى الارض . ثم جاء ثلاثة آخرون فرميناهم جميعا . وهكذا جاءوا كلهم » .

ان قيم همنغواي الخاصة اعلنت بوضوح في القصة الموسومة بـ « وطن الجندي » حيث كتب « اكتسب كريبس القرف بالقياس الى التجربة التي هي حصيلة الكذب او المغالاة » .

ان المثل الاعلى لدى همنغواي ظهر للعيان بمقارنة الحياة بالحرب، وانتقاص احداهما على حساب الاخرى . واصبحت الحياة مظهرا آخر للحرب ، فعالم همنغواي هو حالة من الحرب المستمرة . فالجندي يفسح المجال لمصارع الثيران، والمتهرب من الحرب يعطي مكانه الى الثوري المتعب، وهكذا يمتزج جشع الحرب مع عنف الرياضة وفسادها . ولا يبقى شيء غير كبرياء الفرد الذي لا يطاوله مطاول وغير ارادة الاستمرار والحاجة للكتابة بغير «افتراء او مغالاة» . لقد تمكن بصفته جنديا على المحافظة على اتزانه بتمرده وحده وبهدوء ، وهو الذي حقق السلم المنفرد . اما العصيان فكان الملاذ الاخير للفرد الذي اصطاده في الحرب ، على حين ان العصيان المزمن هو الملجأ الامين للفرد في حالة العدوان الخفي بين الحروب التي يسميها العالم سلما . ومن هنا فملامح الموت اصبحت قصة الحياة الاساسية ، فالبطل الجديد هو مصارع الثيران في الفصل السابع من (في زمننا .) « لما شرع في القتل كان كل شيء في الاندفاع نفسه . نظر اليه الثور وجها لوجه ببغض وكره . سحب السيوف من تضاعيف الجراب وبالحركة ذاتها صرخ في وجه الثور بعد ان فحصه جيدا : تورو تورو ، فهجم الثور وكذلك فعل فيلالتا ، وبلحظة اصبحا كلا واحدا . » اما لطف المصارع الوقتي ، الذي هو في احسن حالاته ، عاطفة ذوق ، فهو ليس الا ذلك وحسب . وحتى ذلك اللطف قد يصبح مدعاة للشفقة والرثاء ، كما هي الحالة في المصارع العجوز في « الذين لا يغلبون » اما ما عدا ذلك فالهزيمة والفساد والانهاك تتكالب بانتشار واسع ، وكذلك الزواج في (ثلج كروس كنتري) والرياضة في (عجوزي) ... والآكلة الفاشية في (Chi Ti Dice la Patria) ؟ وتصل ذروة خيبة الظن في القصة القصيرة المرة (الثوري) وهي قصة شاب ثوري تعذب على ايدي البيض في بودابست عندما انهار النظام السوفييتي هناك ، ثم وجد ايطالياجميلة عام ١٩١٩ . « لقد آمن بالثورة العالمية ، على الرغم من هنغاريا . »

« سأل وكيف هي الحركة في ايطاليا ؟. »

« قلت (رديئة جدا) » .

« فقال ولكنها ستتحسن . انكم تملكون كل شيء هنا . انها البلد الوحيد الذي هو موضع ثقة لكل امرىء. وستكون نقطة انطلاق لكل شيء . »

وحين نشر همنغواي هذه القصص الاولى سنة ١٩٢٥ ، كان في السابعة والعشرين من عمره ، لقد كان نجما طالعا لـ (مستقبل اكيد) كما ذكر لنكن ستيفن في سيرته — في المستعمرة الادبية الامريكية بباريس — وبخلاف معظم كتاب « الجيل الضائع » لم يتردد (همنغواي) على الجامعة ، بل نراه بعد اكمال دورة من المدارس الخاصة، يأخذ بتلابيب العمل وهو لما يزل مراهقا في (كانساس ستي ستار) وهي صحيفة شهيرة بادب مخبريها . وقد عمل في نقالة للمرضى في الجبهة الايطالية قبل دخول امريكا الحرب ، فجرح هناك وابدى بطولة استحق عليها (صليب البحر) وبعد ١٩٢١ سافر سفرات طويلة بصفته مراسلا اجنبيا . كتب همنغواي بعد ذلك بسبع عشرة سنة في نشره الهائم في (الموت بعد الظهر) قائلا : « في الكتابة بجريدة ما ، تقول ما حدث ، وبهذه الحيلة او تلك تنقل الى القراء عاطفة تتضافر عليها عنصر الوقت لتكون اهلا لتقرير معين عن حوادث يوم من الايام . اما الشيء الحقيقي ، اي عاقبة الحركة والواقعة اللتين صنعتا العاطفة ، هذا الشيء الذي

يصمد امام الزمن سنة او عشــرا ، او اذا واتــى الحظ وذكرته على الدوام ، فهو ما كان سائرا خلفي ، وقد عملت جاهدا للحصول عليه . »

ان بحث همنغواي المضني عن « الشيء الحقيقي » جعل الناس يشيرون اليه بالبنان بباريس قبل نشره (في زمننا) . وفي بواكير هذه السنين ، باهتمامه بالشعر وتجاربه باعتباره مراسلا للازمة الاوروبية ، تلمس طريقه نحو نثر جـديد ، نثر لا ينبغي ان يكون امينا كل الامانة في عرضه للحوادث ومتطلبات الكلام الدارج حسب ، بل لا بد ان يطالب ذاته بمرونة اصيلة وسرعة بديهة . وما اراده كما قال في (الموت بعد الظهر) كان نثرا دقيقا اشد دقة من النثر التقليدي ، ومن هنا ، نثرا قادرا على احداث تأثيرات لم يسبـق لها مثيل . واراد ان يرى « الى اي مدى يمكن ان يحمل النثر اذا كان المرء جادا وله قدر من الحظ . اذ ثمة بعد رابـع وخامس وهما ما ينبغي الحصول عليهما . . . انه اصعب من الشعر . والنثر وحده الذي لم يكتب قط . لكنه يمكن ان يكتب بغير حيل وبغير خداع ، بشيء لن يفسد بعدئذ . ومع ذلك فما كان يرمي اليه ، علـى ما اشار اليــه ف . وماتيسن كان الشعر الطبيعي الذي عرف به ثورو . يعود نسب همنغواي السطحي بصفته فنانا ماهرا في النثر الى معلميه الاولين جير تروود شتاين وشير وود اندرسن اللذين علماه الامانة والاخلاص اللازمين . اما جير تروود شتاين فكانت اعمق تأثيرا من اندرسن ، في جعل اذنه ارهف حسا لالتقاط انغام الكلام الطبيعية . ومع ذلك ، فان صلاته العميقــة كانت ابعد منهمـــا ، حتى ابعد من التقاليـد الفلوبرية (١) في الضبط والدقة . »

انه لم يرغب في كتابة « نثر ارستقراطي » وقد شاركه في امتعاضه ذاك كل من جيرتروود شتاين واندرسن ، لانهما كرها الظواهر ولانهما كانا يبحثان بجد عن الصدق العميق في النثـر ، الامر الذي علمـــه ، ولا شك ، الابتعاد عــن الزركشة . انه لم يرغب ان يقول « الصدق عن مشاعره حال استثارتها » حسب ، بـل اراد ان يستهدف ذلـك الصدق التصوري الوضاء ، الذي ابدعه كاتب مثل ثورو من امانته المثالية لدقائق تفاصيل الحياة كما راها ، بالاستناد الى الكمال الجسماني والتسامي الى طبيعة تشابه طبيعته.

ان ما رغب فيه كان ذلك الاحساس باللطف ، اي «عاقبة الحركة والواقعة » ذلك الاحساس الذي يبلغ الاوج فيحرر كل رمز خفي في كل واقعة تلمس وتسجل .

وهذا الامر هو الذي فصل اساسا بينه وبين جير تروود شتاين واندرسن . لم يكن اندرسن مهتما اهتماما جوهريا بـ (الكتابة) ، اما جيرتروود شتاين ، التـي اعانت كـل شخص في العالم ما عدا نفسها ، فلم تهتم بشيء اهتمامها بالكتـابـــة .

ان اسطورة همنغواي التي احتضنها همنغــواي نفسه في العشرينات ، وثقت الاعتقاد بانـه كان عـدميا تماما ، وحشيا في خياله ، مستوعبا للاشياء ببرود . لكن لا شيء كان اكثر زيفا من هذا الامر . فقد قدم لرؤيا الحياة ـ على صغرها ـ فنا رفيعا ، ولذا فمن المهم قياس الرؤيا وتثمين الفن . اما سذاجته الظاهرية فقد كانت في الحقيقةصراحة مثالية وقدرة نابغة على التعلم من كل مصدر محتمـل . وبصفته فنانا عاملا كانت له قابلية لهضم دروس الآخرين بصورة معجبة ، حتى بدا كأنه يستطيع نقل عاطفة جديدة الى كل شيء يمسه . حقا ، لقد تعلم بصـورة تـدعو الى الاعجاب ، الى حد فرض المبالغة على ما استعاره (مـن الآخرين) . ليس الشيء المهم في تربية همنغواي الادبية هو ما تعلمه من نثر منسجم من جيرتروود شتاين مؤلفة (ثلاث حيوات) ولا استخدام البساطـة من عـزرا باوند و (ستوديوهات) باريس الادبية الكوزموبولتية (٢) التي عرفتبعد الحرب. لكن هذه الامور اعانته لتكوين شخصيته الخاصة . وعلى الرغم من الدين الذي بذمته لـ (هكلبري فين) ـ قصة مارك توين ـ الذي يعده اعظم كتاب فـي الادب الامريكي باسره ، فلا صلة اساسية له باي ثقافـة سبقت ـ في وجودها ـ الحرب (٣) . لقد تعلم بايرون من بوب ، بيد ان همنغواي تعلم في محيط ادبي لم يتذكر سنة ١٩١٣ . وحتى الثورة الادبية التي عينـت فيـه وريثهـا باعتباره طليعة رائدة في تلمذته على (بيكاسوها) (٤) وفي كلامه (الحديث) ذي اللهجة التي (يستعملها سكان المنطقة المعروفة (Midwestern) من الولايات المتحـدة) (٥) لـم تستطع السيطرة عليه والادعاء به . اذ حالما تعلم همنغواي مبادىء فنه وحيله ، جعل من نفسه شخصية ادبية ، وهو الذي كان رياضيا وجنديا ومراسلا اجنبيا في حـين مـن الزمن ، لقد ابدع بطلا جديدا من الشاب الغنـدور الذي انهارت احلامه بصورة رومانسية بعد الحرب ، انه ذهب في طريقه الخاصة بحثا عن « الشيء الحقيقي » .

وفي تطلعه غير المنقطع للكمال الواعي من خلال الاسلوب ، في هذا يبرز همنغواي .

وكما كتب مؤخرا : المرء يستخدم ـ في ذكر الحوادث ـ « هذه الحيلة او تلك » والحوار هو ارفع انواع الحيل . لكن « الشيء الحقيقي » ، نبض فنه ، كان بالقياس الـى همنغواي ، الحق في مزج الواقع بالرمز ، والتحويل الكامل للسياق الطبيعي الى استثارة للحركة الضرورية ، تلـك الحركة التي تمزج مختلف مراحل الوجود الراهن ـ من حب وحرب ورياضة ، وتضفي عليها لطفا شاملا . وهنـا اجتمعت لديه التجربة والاسلوب .

ان الانسان يكابد الوحشية والرعب في الحيـاة ، بما تعانيه احاسيسه ، وبما تمر به هذه الاحاسيس احيانا . ونصر الفنان يكمن في نقـل المسرة والمعاناة الى الآخرين بصورة كاملة . انه يستطيع الآن السمـو على الاحساس بالاساءة الذليلة الباهتة ، التي يشعر بها معظم الناس في وجه الحوادث . وباعطائه بعدا جديـدا لوصف الواقـع

الطبيعي تمكن من الحصول على ملجأ يقيه الاضطراب الذي هو نصف رعب الحياة . وقد صور ذلك تصويرا رائعا بمزجه عالمي الحرب والسلم في (في زمننا) . اما موضوع العزلة الشاملة وسط الحرب التي يرن ذكرها في الفقرة الاولى من (وداعا للسلاح) والتي ادركت تعبيرها الكلاسي في التراجع الذي جرى في كابورتيو ، حيث يجري النهر ، ويسير الجنود في صف طويل صاخب ، حيث يقتل الضباط على ايدي الحرس ، هذا الموضوع يتلاشى في الظلام بكليته. وكذلك يبرز المنظر (الرائع) في (الشمس تشرق ايضا) وذلك حين يجلس روبرت كوهن مع جيك واصدقائه ، في مدرج مسابقة الثيران ، فهو يبدو منظرا ذليلا اول وهلة ، قبل ان يجرح الثور في الحلبة. وفي كل حال يجد الحيوان الكامن في الانسان مفتاحه وما يوازيه في حادثة من الحوادث المحيطة به ، وبذا تصبح الواقعة عاطفة متجسدة.

وإذا لم يكن من الميسور نيل « الشيء الحقيقي » دائما او الاحتفاظ به بعد التمكن منه ، فثمة اشكال اخر من اشكال النعمة : ومنها مسرات الشراب والمضاجعة والمصارع الراقص بعصبية قبالة ثوره ، وعواء الصيد ، واحساس الطبيعة العاطفي التي تسمح للانسان ان يكتب جملة مثل هذه (في صيدك لطيور السلوى ، لا ينبغي ان تكون بينها ، والا فما ان تجفل حتى ان تنصب عليك انصبابا ، بعضها تطير صعدا ، وبعضها تنحدر الى اذنيك في ازيز وبمقدار لم تر له مثيلا من قبل ، وهي تمر في الهواء . »

فاذا كان الفن تعبيرا عن الشجاعة ، فالشجاعة – في احسن احوالها – لها ميزة الفن . اما الشجاعة هذه التي هي فخر النزاهة التقليدية والمهارة حتى في « لمن تدق الاجراس » فيكمن وراءها احساس بالطبيعة المشلولة ، طبيعة متجمدة في عزلة من الرعب . وبعد ثورو ، وفي الادب الامريكي باسره ، لم يستطع اي كاتب ان يكون بمستوى حساسية همنغواي حيال الالوان والمناخ ومعرفة الطاقة البدنية ، في الحر او البرد ، معرفة الجسم المفكر المتحرك بين معالم الطبيعة ، هذه المعرفة دعاها ادمون ويلسن « دقة باروميترية » . وكانت هذه الدقة مبعث سرور الصياد والفنان ، وبخلاف اشباع هذه الرغبة ، لم يهتم همنغواي باي قيمة أخرى . فاما قيم مطلقة او انتهاكات مطلقة .

وقد اثبتت عدمية همنغواي العنيفة كل العنف ، في حكاياته وقصصه الاولى ، ان رغبته في تعبير مثالي في الفن كانت السمة البارزة لرومانسي عاطفي ، خابت ظنونه خيبة عميقة . ومن هنا كانت فجيعة شخوصه شديدة الدرامية ، لا تشوبها شائبة ، وانعكاسا شفافا جدا . ان الرموز التي استخدمها همنغواي لتبيان احساسه بعبث العالم ورعبه ، كانت دائما ارجح اهمية من الشخوص المجسدة للعواطف ، التي كان (الناس) يشعرون بها بصفتها عواطف متجسدة اخذ منها الانهيار مأخذه . وكذا حال المغتربين في (الشمس تشرق ايضا) بالقياس الى الموضوع الرئيس ، وعلى ذلك فقد ضاعت تلك الفترة وتبعثرت .

اما العشاق في (وداعا للسلاح) فهم تجريدات عاطفة غنائية كما قال ادمون ولسن . لقد ابدع همنغواي عالما خاصا به ، اكثر بهاءا من الحياة اجتماعيا ، لكنه لم يكتب عن الناس الذين يعيشون في العالم ، بل كان يتداول قيما عتيقة ، فيدفع شخوصه بين قطبين ، فمن تمجيد مرتجف للنفس الى خيبة مطلقة . ان ما احبه اشد الحب كان اثارة شبح الدينونة .

وبعد ذلك جاءت قصة (الموت بعد الظهر) واسطورة همنغواي . وكان لهذه الاسطورة ما يبررها من اسباب ، لانه كان عليه ان يعيش طبقا لشهرته . لكن الاسطورة اصبحت مفزعة بل رخيصة ، وذلك حين اختارها همنغواي دليلا للسلوك الشخصي وسبيلا للعقيدة . حدث ذلك ، في الواقع ، حين اصبح هو اشهر شخوصه . ثم اصبح عمل همنغواي تعبيرا عن هذه الاسطورة على اثر ظهور (الموت بعد الظهر) حيثما كانت هذه الاسطورة استجابة مذهلة لعمله . ذلك بان الاحساس بالرجة والضائقة اللتين احدثتهما قصصه الاولى ، تحولنا الآن الى فصاحة عالية مستكلبة ، يحدث همنغواي السيدة العجوز في (الموت بعد الظهر) قائلا : « لقد فقدت كلماتنا مفعولها باستخدامنا الواهي لها . » مستدلا بنفسه على ذلك . لكن المرأة تسأله « واذن اليس عندك دواء ؟ » فيجيبها « مدام ، لا دواء لاي شيء في الحياة . » ان الموقف التظاهري على مستوى معين ، يصبح ضحكا مكبوتا في مستوى آخر . اما الاراضي الجبلية التي يقطنها المتسكعون التوافه في (والشمس تشرق ايضا) فهي اكتشاف مأساوي لمعرفة الذات ، وادانة للحياة كما يراها هؤلاء . اما لهجة همنغواي ، وفي هذا الوقت ، فتصبح عنيفة بعض الشيء . « والى هنا بشأن الاخلاق . ان ما هو اخلاقي هو ما تشعر بالراحة بعده ، وما هو لا اخلاقي فهو ما تشعر بالضيق بعد حدوثه . »..

وبمرور السنين يصبح المرء معتادا على همنغواي في صيرورته طرزانا قبالة طبيعة (عارية) او الرياضي الملول في (تلال افريقيا الخضر) وهو يحدق متجهما في العديد من الحيوانات التي قضى عليها ، على حين يغدو الاسلوب المشهور اكثر ميكانيكية والجمل متسيبة والفلسفة فلسفة طفولية ذاتية ، والمسرات اشد يأسا وقنوطا . ذلك ان معظم افراد الجيل الضائع قد سافروا الى مناطق اخرى تثير الاهتمام والاستطلاع .

ثم اتخذ همنغواي ملاذا اخيرا له في (Esquire) حيث كتب فيها مقالات مزج فيها بين تقارير تتحدث عن صيد السمك وبيانات فظة تتناول الاسلوب والحياة الفاضلة . وبعد ثماني سنين من نشر (وداع للسلاح) حين فقدت اسطورة همنغواي بريقها بتلاشي العالم الذي شجعها باطراء فارغ ومباهاة ، كتب همنغواي (الذين يملكون والذين لا

يملكون) وهي قصة كتبها بهوس ، تظهر ما فيه من توتر جديد وقلق . ومع ما فيها من ميلودراما (٦) ، فلم تكن رخيصة القيمة ، ومن الغريب ان نلاحظ انها اول قصة انشأها عن امريكا . فالسكارى الكوزموبوليتيون الفارغون الذين يأكلون قلوبهم معا ، والنقل المستمر للمشاهد الى ملقا او باريس او الغابات الافريقية ، كل ذلك خير دليل على ان همنغواي اصبح ظفرا امريكيا اصيلا ، غريبا وبين اهله في كل جزء من اجزاء العالم . لكن (كي وست) جاء فحل محاله ، شانه شان باريس سنة ١٩٢٥ حين كانت ثغر العالم المتفسخ . ومن طريق (كي وست) عاد همنغواي الى الوطن ، و (كي وست) هذا هو الرمز الحي لامريكا في ازمتها : انه الضغينة العميقة الصخابة الخسيسة التي تتناوب بين الانقاض البشرية ، انه صيادو الاسماك والثوريون الكوبيون والمحاربون القدامى والمدمنون على الخمر ، والشباب المتأنقون ذوو الازرار الذهبية والمواطنون الجائعون ، والساحل الابيض العظيم الذي ينبيء بكل خير

ان همنغواي الذي ادرك مفهوم الحياة من الحرب العالمية الاولى لا لشيء سوى لكي يتحطم في الحرب الثانية ، من طريق الفزع العالمي والحرب الاهلية الاسبانية ، همنغواي هذا وجد في عذاب الناس رجعة (وحشية) لم يستطع بطله تحملها الا بكبريائه البايرونية والشعور بحالة النعمة(٧) بيد ان هذه الازمة لا يمكن احتمالها بمجرد تصميم فني ، اذ ان كل جيل وقع في شبكتها ، وتحولت كل مراحل الثقافة المعاصرة والاخلاق بواسطتها ، حتى اسبانيا محبوبته ، قد نالها الخراب من جراء ذلك .

فمن المناسب لهمنغواي طبعا ، ان ينتقي في الثلاثينات بطلين له هما قرصان « الذين يملكون والذين لا يملكون » والجاسوس العالمي في (الطابور الخامس) فقد ارتحلا من (بلاك فرايدي) الى ميونيخ وظلا غير مهتمين بالابادة الاجماعية ! لقد كان يسعى في هذين الكتابين للعثور على شيء ما لا يتبينه جيدا ولا يستطيع ابرازه بثقة . وكان محتما على هاري مورغان وفيليب ان يمثلا الفردية المعذبة القديمة التي رنت الى الاخوة الانسانية وسخرت منها في الوقت نفسه . ومن هنا اصبح بطل همنغواي حصيلة جميع ابطال همنغواي مع مبالغة ، لكنه لا شيء بحد ذاته . كان الصياد المراسل لـ (اسكواير) وعميل الاستخبارات الروسية في اسبانيا ـ فوجد نفسه مخيرا بين الجمهورية الاسبانية وفتاة فاسارية ، كان من رجال العصابات القتلة ، انه فعل ذلك لان همنغواي اراد القتل في تلك الآونة ، وكان من رفاق السفر المفشوشين ، وحين سمع الميليشيا تنشد (بانديرا روسا) في فندق فلوريدا المحطم قال : « ان احسن الناس الذين عرفتهم ماتوا من اجل ذلك النشيد . » ومع ذلك فان فيليب في (الطابور الخامس) لم يكن من احسن الناس ، انما كان كجاك بارنيز العنين الذي استخدم قتل الفاشست تعويضا عن عاهته ، وكذلك الامر مع الفاشست الذين لم يكن واحدهم حقيقة واقعة .

ومهما يكن من امر فقد حاول همنغواي ان يستعيد صحته ، وقد نال ما اراد في اسبانيا بشكل ما ، وجدها في القصة القصيرة الفريدة (الرجل العجوز على الجسر) وقد ارسلها برقيا من برشلونه في نيسان ١٩٣٨ . (ومما قاله بهذا الخصوص) في مقدمة (الطابور الخامس) « ساحتاج الى العديد من المسرحيات والقصص لشرح نبل قضية الشعب الاسباني وكرامته ، ولن تكتب احسن هذه النصوص والمسرحيات الا حين تكون الحرب قد انتهت . » ان « الرجل العجوز على الجسر » ليست تمهيدا لـ « لمن تدق الاجراس » حسب ، بل هي سجل لاحسن ما تعلمه همنغواي من اسبانيا ، واشارة الى ان همنغواي قد وجد مثله الاعلى الملوث ، وجده صافيا مشعا مرة اخرى ، من خلال استشهاد جماهير الشعب الاسباني . ففي تراجع القوات الموالية للحكومة ، التقى ضابط اسباني باحد اللاجئين من سان كارلوس ، رجل عجوز كان يعتني بثماني حمامات وعنزتين وقطة ، لكنه عزل عنها جميعا كما فصل عن شعبه نفسه بسبب تقدم الجيوش الفاشية . فسأله الضابط الحكومي : « اعندك عائلة ؟ » اجاب العجوز : « كلا ، ليس عندي غير الحيوانات كما قلت . طبعا سيكون وضع القطة حسنا . لان اي قطة تستطيع ان تجد معيشتها . لكن لا ادري ما سيحصل للاخرين . » واستطرد الضابط سائلا : « ما هي السياسة التي تعتنقها ؟ » فاجاب العجوز : « لا سياسة عندي . انا في السادسة والسبعين . وقد سرت اثني عشر كيلومترا الى الآن . احسب اني لا استطيع ان امشي اكثر من هذا . »

وبشيء من مثل هذه الروح كتب همنغواي (لمن تدق الاجراس) وهي عمل رومانسي عميق الاصالة ، استطاع الوفاق مع المثل الاعلى في الختام ، كما بعثر آثار الموتى بهكذا حماسة ، بحيث ان صورته للحرب الاسبانية كانت دراسة للشجاعة الملحمية اكثر من كونها دراسة للشعب الاسباني . اما المثالية التي كانت متجمدة في انحرافها ، ساخرة بذاتها ، تنخر هذا الشيء او ذاك ، فقد اصبحت مثالية غنائية غير هيابة ولا وجلة ، لفت حب روبرت جوردان وماريا وقوة بيلار وشجاعة الانصار واخلاصهم ، وغنى اللغة الاسبانية ولوذعيتها ، لفتها في نشيد من الاخوة

---

(١) بالنسبة الى غوستاف فلوبير ، الكاتب الفرنسي الشهير ، المترجم.
(٢) العالمية التي لا تتقيد بالقيود الوطنية او القومية ، المترجم .
(٣) المقصود بالحرب ـ في هذا الشأن ـ الحرب العالمية الاولى ، المترجم . (٤) بيكاسو الثورة الادبية ، بما عرف به من سريالية وفن جديد في الرسم ، المترجم . (٥) من كلام المترجم . (٦) الميلودراما حكاية تكتنفها مباغتات محزنة شجية ، المترجم . (٧) البايرونية ، بالنسبة الى الشاعر الانكليزي الشهير اللورد بايرون ، وحالة النعمة هي حالة جميع المسيحيين الذين تم خلاصهم من الخطيئة على اليد السيد المسيح بواسطة كفارته ، المترجم . (٨) جون دون من مشاهير الشعراء الانكليز ، وقد اقتبس همنغواي منه عنوان كتابه ، المترجم .

الانسانية . « كل الانسانية من وضع مؤلف واحد ، وهي كتاب واحد ، فليس من انسان يستطيع ان يكون جزيرة منفصلة بذاتها » وليس من شيء يمكن ان يكون امريكيا اكثر من قصة حب روبيرت وماريا ، وليس من قصة حب يمكن ان تكون اشد تجريد تعبير لثقة الكاتب الامريكي في الحياة واحترامه لاوروبا . والظاهر ان همنغواي ادرك تقديرا جديدا للانسانية في اسبانيا ، وعلى الرغم من ايمان جون دون الكاثوليكي الذي قدم له العنوان (٨) يبدو ان الوحدة (الانسانية) الحميمة التي سعى اليها جاهدا ، والشجاعة المطلقة النقية والنعمة الوفيرة ، كل هذه اصبحت وحدة عمل وصدام وحب ، وحدة فيها فرح وانشراح .

ومع ذلك فان (لمن تدق الاجراس) هي بين اقل اعمال همنغواي شأنا . فشخوصها الرئيسة ليست حقيقية على الاطلاق ، وبصفتها سجلا للدراما الانسانية الاجتماعية التي تمثلت في الحرب الاسبانية الاهلية ، لا تعدو كونها سطحية زاهية بغير عمق . واذا ما قارن المرء هذا العمل (الادبي) الذي يصور هدايته الطامحة ، ببلاغته وتقديراته وزهوه الرومانسي ، قارنه بالاقصوصة الرائعة الفريدة (ثلوج كليمانجارو) لاتضح ان التوكيد على الحياة في القصة مع عاطفيتها توكيد صادق ، فهي تتحرك في داخل نفسها ، على حين ان دراسة الخراب والموت في الاقصوصة دراسة درامية رفيعة تدق على احسن اوتار همنغواي .

وعالم همنغواي لا يزال عالم الموت حتى في (لمن تدق الاجراس) اما الاشياء العظيمة فيه (أي في العالم) كمشاهد المعركة التي سبقت نهب القرية الفاشية ، فتجري على وفق عنف مدبر ووحشية هما طابعا اسلوبه . لكن الحرب الاسبانية ـ في جوهرها ـ ليست غير مدرسة لتثقيف روبيرت جوردان ـ « انها جزء من ثقافة المرء . وستكون ثقافة كاملة حين تضع اوزارها . أما « انا » همنغواي فلا تزال مركز الوجود ، لانه وحده القادر على الانتقال من الحرب الى ماريا بهكذا سهولة في عنبر النور ، وهو الوحيد الذي يبدو اقل رجولة حين يستطيع الدخول في تجارب الاخرين ، من هؤلاء الملعونين المنهمكين في ذواتهم المعروفين، من الجيل الضائع ، الذين لا يستطيع بايرون الا ان يلعب دورا ثانويا بين ظهرانيهم . وبطل همنغواي لا يزال « هو الرجل الذي تجري الامور معه على هون » الحرب شيء يحدث لروبيرت جوردان ـ والشاب اللامع يحسب حياته جزءا من الخرائب. وعلى ذلك فان قصة (لمن تدق الاجراس) ليست وافية بالمرام ، وبخاصة بالقياس الى همنغواي ، لانها تطبيق متوتر غير اختياري لفرديته الفوضوية ورؤياه النصفية الرائعة للحياة ، على عالم جديد من الحرب ونضال واسع لا يتلاءمان وشعور همنغواي بالابعاد .

ومع وجود الرغبة والامل الطموح ، فليس اشد زيفا من الاعتقاد الشائع بأن همنغواي اراد الطواف حول الدائرة الفوضوية القديمة . وكما عاش روبيرت جوردان وكافح في الحرب بمفرده ، كذلك فهو يموت وحيدا ، منتظرا مجيء العدو ، وهذه هي حال احد الانصار ، فهو يموت فريدا ، كما اراد يوما ما ان يصنع صلحا منفردا ، اما بقية ابطال همنغواي ، فمع نكران ذواتهم ، فهم لا يؤثرون في غيرهم الا اقل تأثير . ان نكران الذات والموت الفردي وجدا من قبل وكان ذلك حسنا . حسناً حين يكون الصياد وحيدا بين التلال ومصارع الثيران قبالة ثوره ، وطائر السلوى يحوم في الهواء . حسنا حين تستطيع جير تروود شتاين ان تعلم شابا ليكتب جملا « كاملة » وحين يكون انتصار الفن مساويا لنكران الحياة . حسنا حين يستطيع العالم ان يبدو وكقصة من قصص همنغواي ، و « الانا » رمز خيبة الامل والكبرياء العنيفة في عالم رائع في مرضه ، والجمل كاملة تملأ الظلام . فلم يكن مهما ان يكون الفن طريفا رائعا ، بينما الحياة تحت نسيجها النفيس ، مظلمة عارية . ذلك ان ادب همنغواي هو واحد من الانتصارات النصفية العظيمة ، فقد اثبت نفسه فنانا عصريا منتصرا من الذين جاءوا الى امريكا ، ومن اهم المبدعين المثيري الاعجاب في تاريخ الخيال الامريكي . لكن اذا لم يكن الامر مهما حينئذ فهو مهم الآن ـ لا لان كل ما هو حسن رائع عند همنغواي قابل للفناء ، بل لان عمله مستقر ساكن لا استمرارية حقيقية فيه ، ولا شيء من النضج الاساسي يكتنف روحه وهو ما اثارته دائما بصيرته الشاعرية ، ان الامر مهم الآن لان تأثير همنغواي اصبح مسألة تأريخية . وسيكون الامر مهما دائما وبخاصة لهؤلاء الذين يتفهمون ما جلبه الى الكتابة الامريكية ، والذين يدركون ما في ادب همنغواي من نجاح امريكي ملموس ، والذين يشعرون بعطف واحترام ، ان هذا النجاح يخص عالما عنيفا ضيقا محليا ـ لا يتفوق عليه مطلقا .

كان لهمنغواي تأثيره الواسع على الكتابة في الثلاثينات، من جهة التقنية وحتى الاخلاق . وبصفته فنانا ذا اسلوب ومهارة ، كان مثلا جذابا للشباب الذين جاءوا الحياة بعده ، وباعتباره واضع مذهب الكتابة الامريكية العنيفة ، يبرز تأثيره العظيم في قصص الثلاثينات ، وهذا ما جعله ـ بالتوكيد ـ في الصف الاول من المؤثرين في الرواية الاجتماعية اليسارية اكثر مما يعترف به الكتاب . وليس غير درايزر من له شيء من سطوة همنغواي على الرواية الامريكية الحديثة ، في فترة اسبق ، ومع ذلك كان درايزر مثلا للشجاعة والصراحة في النضال من اجل الواقعية ، واسلوبه لم يكن كاسلوب همنغواي من حيث قوته الاقناعية ، في تأثيره في جيل باسره تأثيرا صبغ افراده بصباغه ، بينما هذا الاسلوب بدا في الصحافة الامريكية ذات الخداع الكثير والصدق القليل . ان همنغواي هو الاله البرونزي لكل التجربة الادبية المعاصرة في امريكا .

بغداد **يوسف عبد المسيح ثروة**

سئمت من هذه السطور التي تمتد امام عيوني .. حروف صغيرة ناعمة مسكوبة بنظام . لكنني سئمتها .. مللتها . لم اعد اعي ما تقوله .. ما تهمسه لي . تركتها ملقاة بلا مبالاة على طاولتي الخشبية المربعة الشكل القديمة . والقيت نظرة على مرآة مغسلتي : مجرد نظرة لا تعني شيئا وخرجت .

موقف الاوتوبيس يقع قرب بيتي . تظلله شجرتان عاليتان .

وتمر عشر دقائق وانا لا ازال انتظر . الحر لا يرهقني فالظل يأويني لم أتحرك خلال هذه الدقائق العشر . ظللت جامدا أخاف الشمس ونارها .

وانفتح الباب وهو يزار بآلية . لم يكن حولي سوى امراة واحدة يكسوها السواد .

الصيف قاتل وحره قاتل . الصيف مجرم . وهي يكسوها السواد . الحذاء اسود . الصيف قاتل وهي ترتدي معطفا طويلا — المعطف اسود — وحجابا اسود كثيفا لا ترى من خلاله الا عيونا ضبابية . قد ترى نورها بثقب الحجاب . وقد لا تراه تركتها تصعد قبلي . ربما كانت هذه عادة بلهاء قد سكنت لاشعوري .

وراح الاوتوبيس يتبختر في الشارع العريض الخالي . الشمس تلمع فوق الاسفلت الاسود ونارها تغلي . والشبابيك الزجاجية تزقزق بصوت كريه مزعج . الآلات والمقاعد كلها تنتفض . وليس هذا غريبا علي فلولاها لما عرفناشيئا اسمه الاوتوبيس . خمس دقائق اخرى مرت . الجابي لا يزال يلوك كلاما مبهما مع السائق . كان يدخن واللوحة البيضاء برصعها سواد فيه وقار .. تقول احرفها : التدخين ممنوع .

اعتراني شيء من الرعب . والتقزز . افواج من العمال . ربما عشرون . ربما ثلاثون . ربما اكثر . احتشدوا في هذا الموقف . عمال ؟ اقصد بناؤون .

الغبار يتطاير . غبار ابيض . والمعاول فوق اكتافهم وفي ايديهم صرر حمر وخضر وصفر . وجوه بيض كلسية تلمع فيها آثار اسوداد الذقن والشوارب .. كأنها اطلال كنيسة .

الصيف قاتل والحر قاتل . لفحة .. او شال — رخيص يلف رقابهم ورؤوسهم . سراويل منفوخة بالهواء الفارغ تتدلى كذيول خرفان شرقية سمينة : ذيول دهنية .

وتدافعت الامواج . تضاربت . علا رذاذها وانتشر يملأ الفراغ . وتلاشى السكون : هرب من الثقوب .

— يا أبو صطيف ..

— يا ابو حميد ..

— يا ابو محمد ..

كل يحدث الآخر عن عمله في يومه

الحريم وانا

بقلم منذر ناشد

او عما تناوله من طعام او كيف سيقضي ليلته :

— نروح نقعد في القهوة مدة ساعة وبعدها نروح على السينما .

كان شابان يتحادثان .. شابان من البنائين .

لا يزال الرذاذ الابيض يصبغ الجو . عيوني وانفي اتحدت في عمل واحد : الابتعاد عن الرذاذ الابيض .

المراة الملفعة بالسواد تبدو غريبة في هذا الوسط الابيض . لكنها لا تلتفت لا تصغي الى الاحاديث التافهة التي تدور بين هؤلاء . ولا تضحك او



تبتسم لنكات يلقيها الشباب منهم .. ربما تبسمت .. واخفى السواد تبسمها .. دفنه في أعماقه .

الرعب — التقزز .. الشعور الغريب بهماً يعاودني . لم ؟ اني اختنق .. الهواء : بدات احس بالمعنى الرائع لهذه الكلمة . لم اكن اتهرب من ان يجلس عامل بناء بثيابه الملطخة بالغبار قربي وانما كنت اختنق رغم كل شيء . كنت ارى نوعا من اللذة في التجسس في التقاط الكلمات ، التي تفلتمن شفاه العمال البنائين . واحس بنشوة تسري في عروقي واناخالطهم وان كنت اختنق . اليسوا بشرا ؟

الاوتوبيس يقف من جديد . جراد اسود ينتشر على طول الطريق . سمعت باب الاوتوبيس يزار بآلية .. صرخ البعض :

— الله واكبر . وبدك تركب كمان ناس . الا يكفي . رايحين نختنق .

وازداد شعوري بالاختناق اني فعلا اكاد اختنق . لكن الجابي يأبى — وكانه انساني الطباع — الا ان يلتقط الجراد الاسود . موجة الجراد الاسود كلها .

نساء ملفوفات بالسواد . والصيف قاتل . والحر قاتل . اربعون طفلا وطفلة بايديهم زجاجات حليب وسخة ملونة بعضها .

الولولات تروح وتجيء بين شفاه الحريم المخبأة تحت السواد . وضحكات خفيفة تفرقع .

سد الباب كل امراة كانت تلف بين يديها طفلا رضيعا او طفلين . وربما تخفي اخا له لم ير النور بعد . وتحت قدميها يزحف اثنان .. ثلاثة .. ربما اكثر كل امراة .

— اف : شو ما في ذوق؟ اختنقنا .

حاول الجابي ان يهدىء من اعصاب العمال . الابيض يعانق الاسود . يتخانقان يتدافعان .

— معليش . معليش . معمل الاولاد — ويقصد المستشفى — وقف عن الشغل اليوم والنسوان طالعين منه .

نعم معمل الاولاد قد اغلق ابوابه . لم تولد اليوم امراة .. لزيارتها ..

ولم يعد يوزع زجاجات الحليب . فلينصرف الحريم .

صبايا .. حلوات يخفي حلاوتهن حجاب كثيف اسود . كالليل طويل. ظالم . مظلم .

السواد .

شباب . زهور يلوث الكلس الابيض شفاههم ووجوههم وتجاعيد جباههم . البياض .

ويلتقي الاثنان . يبتسمان .

تزغرد نكات وتعليقات تنطلق من شفاه الشباب الابيض . تضحك لها العجائز ببلادة ثم يعودون لاحاديثهم : العائلة كيف حالها ؟ العمل .. العشاء. ما هو اليوم يا ترى .. وغدا .. والمصروف .. والربح ؟

— قوم واعطي محلك للحريم .. مو عيب عليك ؟

— مين بيعطي مكانه للحريم .. يدخل الجنة .

— اتفضلي يا ست .

— لا .. والله خليك مستريح .

— معليش .. اتفضلي . حلفنا والله العظيم .

تبتسم — كلهم يردون لها الف ابتسامة . تثقب السواد لتصل الى شفاه الحلوة . الى عينيها .

تزاحمت في راسي الافكار . من سود . وبيض . لقد تمركز الحريم في المقاعد .. واستحل اماكن الرجال .. والرجال يخجلون من الحريم لذا نهضوا وتقدموا بمقاعدهم هدية وقربانا .

قليلات .. لم يجدن مكانا . بعض الشيوخ الكبار . التعب والارهاق لا يزحزحهم عن مقاعدهم . وانا . كنت لا ازال جالسا . انا الوحيد الذي كنت ارتدي بنطلونا وقميصا كالآدميين .

تقدم شاب ابيض منهم . تقدم نحوي . قال لي بوقاحة وجراة .

— قوم يا سيد . قوم عيب عليك . الحريم واقفين وانت قاعد . وتتابعت الاصوات . منطلقة خشنة من حناجر خشنة . موجة بيضاء تغلبني .

قلبي يضطرب.. ارتجفت. شعرت برطوبة تسري في جبيني : تتحول الى ماء بارد يسيل فوق جفوني . واحمرار اصفر يرتسم فوق تقاطيعي . شعرت به يحرجني . تكتلت الاصوات والصرخات كلها في حزمة خشنة تدعوني لتحقيق امل . نظرت الى الحريم الاسود .. الى اللواتي لم يجدن مقعدا خاليا .. صبايا لا تتجاوز الواحدة منهن العشرين سنة .

والتقطت عيوني الابتسامات السارية بين عيون الصبايا .. والشباب . الابيض والاسود . يلتقي الاثنان . يبتسمان .

هذا كله لم يدم لحظة . اقتلعني من مكاني الخجل . والموقف الحرج وحزمة الصرخات المنطلقة من الحناجر البيض الخشنة .

— قوم يا سيد . قوم عيب عليك.

وازدادت الابتسامة اتساعا — على ما يبدو لي — على شفاه الصبايا الملتفات بالسواد . وهرولت ادفع من يقف في طريقي ولا اسمع التهم الملصقة بي . اسرعت الى الامام وزعقت في وجه السائق :

— هو .. هوب .. بدي انزل .

كانت لا تزال امامي عدة مواقف اخرى لاصل الى السينما — المكان الذي سأقصده . ورغم ذلك نزلت بسرعة جنونية. والقاني الباب الامامي الى الشارع .

السكون . الصمت الحزين . نسمة من الهواء الساخن تلفح وجهي ازداد غيظا . واتابع طريقي سيرا على قدمي وجملة تلهث على شفتي .

قاتل الله الحريم .

القاهرة — منذر ناشد

صلاة قلب

هوى الهي الرؤى يورق .. في اعرقي .. وفي دمي يخفق
ملون الرفات .. مغرورقا ... في غفوتي لألاؤه تشرق
اغيب عبر الحلم .. في دفئه .. شوقا .. وفي موجاته اغرق
اغنية خضراء .. هيمانة .. يبوح في ايقاعها المطلق
اليك يا من عشت في حيرتي .. بحبه الراعش .. لا انطق
ارفعها صلاة قلب له .. عبر لياليه .. هوى شيق
يحلم لو في عمره برهة .. يرف في ظلك او يخفق

كمبرج — انكلترا — احمد امين



رائد الثقافة العامة

أيسر الوسائل الفعالة في التثقيف الذاتي

تأليف كورنيلوس هيرشبرغ ـ ترجمة : محمد يوسف نجم ، عبلة حجاب ، عبد الرحمن ياغي ، عبد الرحمن اللبان ، سميرة عزام ، وصفي حجاب ـ ٥٠٨ صفحة ـ منشورات دار الكاتب العربي ببيروت ـ المطبعة (؟)

للمطالعة طرقها المثلى ، اختيارا للمادة ، واستيعابا لها ، ومقياسها الحياة العملية ، وما ادخله الفرد على ذاته من تطوير ، ان النقص في المعرفة ، لا يعني اكثر من فقدان الذات ، ومن نتائجها الفوضى ، وفي عالمنا العربي نقص في الثقافة . ومن اولى نتائجه السطحية والادعاء والغرور المرفوق بالتعصب ، وكما هو معروف لا يمكن للجامعات ان تخرج مثقفين ، انها ترشد الى الطريق القويم في بناء الذات ، وتاريخ عباقرة العلم عامة يدعم تلك الفكرة ، اما السبيل الى تلاقي ذلك النقص في الثقافة ، فهو معرفة الطريق الذي يوفر الزمن ، ويرشد الى الجدير بالمطالعة من بين ملايين الكتب التي اغرقت السوق، ان الفرد يرى نفسه في الآخرين وهو مقياس لفرد آخر والجماعة مقياس للفرد حيث يتم التقيم له ، على ضوء معرفته التي كونها من مطالعته للمؤلفات القيمة المتوفرة في كل زمان ومكان. ومن بين الكتب التي عالجت موضوع التثقيف الذاتي ، بعيدا عن الارهاق ، والنفقات الجامعية ، اذا توفرت المؤهلات ، رائد الثقافة العامة لمؤلفه كورنيلوس هيرشبرغ والذي استطيع تقديمه مع انه قدم نفسه في مستهل كتابه ، بانه لم يكن اكثر من فرد توفرت عنده رغبة المطالعة ، فخلقت منه صاحب تجربة ، ولقب بانه رجل مثقف . اما كتابه فقد احتوى على فصول في التاريخ واهميته والادب والفنون ، وكيف يصبح المرء اديبا وكاتبا ، وكيف يحب ما تعود الكثير على مقته من فروع المعرفة الرياضية والفيزيائية واهمية كل ذلك في الحياة العملية ، وله وقفات تطول وتقصر حسب اهمية الفصول ، واول فصل كان في التاريخ .

وفي حقل التاريخ يقف المؤلف وقفة طويلة عملية مدعومة بالشواهد يتحدث فيها عن اهمية التاريخ وكيف ولماذا يجب ان تقرأ كتب التاريخ ، وشواهده مستقاة من تجربته الخاصة ، ويشعر المطالع لها بانه يعيش تلك التجربة ، وبدايته قد لا تروق بادىء ذي بدء لكثير من القراء ، الا انها ضرورية حيث تشكل حلقة من سلسلة يجب ان نمسك باحد اطرافها لنصل الى بدايتها ونهايتها ، ودراسة التاريخ متأتية مما يحب المرء ويؤثر مطالعته لكل فرع من فروع المعرفة التي لها صلة قريبة او بعيدة بالتاريخ ، نظرا لترابط الاحداث ، وصلة كل منها بالاخرى ، مؤلفة شبكة المعرفة ، ان اي نوع من انواع المعرفة وفروعها والتي يشعر المطالع بالراحة والرغبة والتجاوب في اقتفاء آثار حلقاتها تقود الى نوع من التاريخ قد يكون قريبا حديث العهد او بعيدا من فرسان غابر الازمان . والمؤلف يوضح من وجهة نظره ما يجب ان يقرأ ، معتمدا على الفكرة القائلة ، ان المتعة والراحة واللذة ، وحاجة تحريك العقل واليد من الوسائل الناجعة لطالب المعرفة الراغب في تقصي حقائق ما يحيط به ، وبذلك يتمكن من ان يوفر لنفسه المرونة وسرعة التلاؤم وازالة العقبات الكاداء التي تعترض سبيله خلال فترة امتداده الزمني .

حين نطالع ما نشعر بحاجة اليه ، وان كان لا يوفر المتعة والراحة المؤقتة نجد فيه نوعا من اللذة دون شك غير تلك التي توفرها الرغبة في المطالعة ، بعيدا عن الاكراه شأن الدراسات المدرسية ، أعني الرغبة الذاتية والحث الذاتي للمطالع على اتمام ما بدأ بمطالعته ، في اي زمان ومكان يستطيع الفرد الملم الماما متوسطا ان يصبح مختصا ، وان يكون من نفسه دائرة معارف بجهد متواضع وزمن قصير ، يمكنه من الاجابة على كل سؤال يعبر مخيلته ، لان التاريخ لم يكن في اي وقت ارقاما ووقائع يجب ان يكون لها خصائص وميزات الصورة الفوتوغرافية . انه التجربة الانسانية الممزوجة بالتجربة الذاتية التي تؤلف الجديد الذي يسعى وراء تطوير نفسه ، ومن تقوده الرغبة في المطالعة ، ولا وجود لفكرة الاكراه في ذاكرته حول ما يقرأ ، والذي لا يسمح لانامله ان تمتد الى صفحة جديدة قبل استيعاب التي امام ناظريه وهو يطالع ما يشعر بميل نحوه سيصل الى نتيجة مرضية ، وينام راضيا عن نفسه على الاقل ، ان المعلومات هي التي تقود الى بعضها بعضا وتجذب بعضها الى الذاكرة وليس المطالع ، وعلى المطالع اشراك نفسه ومخيلته دون شطط في عمل الذاكرة ، يقرأ ويقوم بعملية الربط والتوحيد بين المعلومات دون ارهاق ، وهو سريعا ما يصل الى مبتغاه من وراء المطالعة ، لقد تحدث المؤلف باسهاب ولم يدع شاردة او واردة الا احصاها ليختم حديثه بهذه العبارة : « الدرب مفتوح امامك فاصبح حاملا لدرجة الدكتوراه في التاريخ لا اقساط جامعية ولا امناء صناديق ولا عمداء ولا واجبات بيتية ولا ابحاث فنية كل ما في الامر سنتان من المطالعة الشيقة في امتع موضوع في الوجود ، قصة الانسان ، قصتنا نحن » ١١٤ .

اما في حقل الادب التي يعرفه بقوله « سيحمل الادب لدي في ثنايا هذا الكتاب مدلول الفن نفسه وسيدل على فن الكتابة حيث يكون الكاتب معنيا لا بما يقول بل بالطريقة التي يقولها » ١١٨ ليتابع حديثه محددا موضوعه الاساسي بقوله « انما موضوعي التربية الثقافية الخالصة حيث يكون القارىء هو المعلم ولا بد من ان افترض من ان لدى القارىء الرغبة في معرفة هذه الامور » ١١٩ .

وازاء كثرة فنون الادب لا يترك الحيرة تتسرب الى نفس القارىء . حين يقول « وبعض فنون الادب تسترعي اهتمام الانسان وتجلب المتعة اليه حتما وعليك ان تعلم بطريقة التجربة ايها أيسر عليك متناولا » ١١٩ ليسرد من وجهة نظره ملاحظاته التجريبية التي سلكها في تثقيف نفسه ، ان الآراء التي يدلي بها حول الرواية والفن الادبي الحديث ، والشعر والمسرحيات تنبع من انه كان دائما يسعى جادا الى تثقيف نفسه بمطالعة دراسية والارتفاع الى مصاف الكتاب اللذين يطالع لهم ، والكاتب دون شك قد بذل جهدا في انتاجه وهذا يتطلب منا جهدا لفهمه والارتفاع الى مستواه ، ان المقارنة التي يجديها بين مختلف ما كتب تحت اسم الادب ، تجربة حية تزخر بالحياة وتفيض حيوية . وباستطاعة معظم القراء اقتفاء اثر خطاه ليصبحوا على مستوى رفيع من المعرفة يساعدهم على ادخال الرضى والطمأنينة الى نفوسهم ويؤمن الراحة الى عقولهم .

وبعبارة رشيقة فياضة بالراحة والمتعة ينهي المؤلف اهم فصول الكتاب بقوله « وبهذا ينتهي الجزء الهام في هذا الكتاب ... فاذا استطعت ان تفعل شيئا وفق الخطوط التي عرضت لها حتى الآن فانك قد بلغت سؤالك » ١٨٢ .

اما الفن الذي كرس له فصلا مستقلا فله شأن آخر عنده ، فهو يعتبره اكتسابا للتقنية واستعمالا لها ، وحين تكتسب المعرفة ويتقن استعمالها ،

يستطيع الفرد ان يقدم على خطوات اخرى اكثر نفعا في سبيل ارتقائه .

واذا كان اكتساب المعرفة يحتاج الى جهد فان استعمالها يحتاج الى جهد ممزوج بالمهارة ، والحياة مكنت كل فرد من ان يلم ولو بمقدار من الطاقة لتذوق الفنون . وفي ابسط الاحوال يدهش ، او يدخل الى نفسه الاعجاب وهو يشاهد نتاج فنان . وبذلك يكون قد تقدم خطوة نحو الامام للالمام كليا بالنتاج الفني من موسيقى ونحت وتصوير ، والمؤلف في هذا الفصل يحاول ان يثبت ان بمستطاع كل فرد ان يكون فنانا وذواقة للفن ، وهو لا يضع من الشروط التي يجب توفرها اكثر من الرغبة والجلد تجاوبا مع ما يستأثر باهتمامه ويلقى القبول والراحة لدى نفسه ، في ميدان هذا العالم الرحب الذي نعيش في خضمه وهو محجوب عنا بالاهمال والتقاعس وعدم الثقة .

وفي ميدان الرياضيات نجده يجند طاقته الى ادخال الطمأنينة الى تلك النفوس التي نفرت لكثرة ما سمعت من لغط حول الرياضيات ، والعلوم الطبيعية . واعتبرتها وقفا على نفر اقل من القليل من المواطنين اذ يقول « ومع ذلك يبين هذا الفصل في وقت مناسب للغاية السبل الى نشر المعرفة الرياضية بين الجميع ... وينبغي ان يطالع هذا الفصل بعناية خاصة اولئك الذين يوقنون بانه لن تكون لهم صلة بالرياضيات اذ انني بينت باوضح ما يكون اسلوبي في دراسة هذا الموضوع» ٢٩٨ .

بعد بسط تجاربه وخبرته ومدى ما كان يكنه من كره لهذا الفرع من فروع المعرفة ، والذي تسرب الى نفسه يوم كان يدرس الحساب ويبسط بوضوح كيف اصبح يتقن اعقد النظريات الرياضية بما فيها النظرية النسبية التي اعتبرت خطأ بانها وقفا على المختصين في هذا الميدان . لقد تدرج صعدا في سلم الرياضيات التي ادخلت على حد قوله الى نفسه متعة لم تدخلها مادة اخرى من المواد المحببة الى نفسه ، وهو اذ يبسط الطريقة يذكر اهم وافضل الكتب التي يجب ان تقرأ في هذا الميدان شأنه في بقية الفصول ، وكما فعل حين عالج موضوع الطبيعيات من فيزياء وكيمياء وسواهما ومما قاله في ميدان الرياضيات « ان قيمة الرياضيات بالنسبة للشذوذ العصبي هي في ما تضطرك الى عمله ان انت قررت دراستها فهي نوع من النشوة بل هي نوع انفلات كامل من الذات ومن كل ما يقلق الذات » ٣٦٦ .

وفي حقل العلم والفلسفة لا يقل جهده عن باقي الفروع ، واني اترك هذا الفصل مع غيره امام القارىء ليقف بنفسه على هذه التجربة الذاتية التي اوصلت صاحبها الى مرتبة يحسد عليها من لدن الكثير من الناس ممن لا يفتأون يتحدثون عن رغبتهم في زيادة معرفتهم ويتشدقون بمختلف انواع المبررات والاعذار . فالى اولئك الذين يبحثون عن ذواتهم اقدم هذا الكتاب الذي زادت صفحاته عن الخمسماية وترجمته نخبة من الاختصاصيين فجمع التجربة والخبرة ليضعها فيمتناول كل طالبمعرفة.

عبد الكريم حاج قاسم

●

الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين

تأليف كامل السوافيري ـ ٦٥٠ صفحة ـ منشورات مكتبة النهضة بالقاهرة ـ المطبعة (؟)

عاش الاستاذ كامل السوافيري خادما لقضية فلسطين ينفح عنها بدمه وماله وقلمه ، وقد امتلأت صحف الاقطار العربية بمقالاته الملتهبة ، وابحاثه الهادفة كما اتسعت ندوات القاهرة واذاعاتها لمحاضراته السياسية والادبية بشأن فلسطين ، حتى اصبحت قضيتها شغله الشاغل وهمه المقعد المقيم .

لذلك كان طبيعيا ان تكون رسالته الجامعية التي نال بها درجة الماجستير من كلية دار العلوم عن موضوع حيوي يتصل بفلسطين ، فعنوانها « الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين » ، ومن عرف ان الاستاذ السوافيري يشتغل بالنقد الادبي طيلة حياته اشتغاله بمأساة وطنه ، فقد ايقن ان الكاتب يتحدث في ميدانه الاصيل سياسيا وادبيا .

أجل ، سياسيا وادبيا ، لان الرسالة مزيج من السياسة والادب على نحو لا يدعو للاعتراض ، فقد ظن بعض الكاتبين ممن نقدوا الكتاب في الصحف ان السياسة قد احتلت حيزا كبيرا في موضوع لبابه الادب المحض ، ولو ان السياسة اقحمت اقحاما لكان لهذا الاعتراض وجهته المعقولة ، ولكنها جاءت تمهيدا كاشفا لبواعث الشعر ودواعيه ، فهي من الشعر بمثابة المسرح من التمثيلية ، ولن يقدر قارىء القصيدة على تذوقها دون ان يعلم بواعثها الكامنات .

والجميل حقا في موضوعات الرسالة السياسية انها لا تلم بالذائع المشتهر الا يسيرا حين تعرض لادوار سياسية هامة يجهلها الجيل المعاصر، وبعضها غير معروف اطلاقا ، فجاء الاستاذ كامل يكشف عنهما النقاب ، فيتحدث عن معارك دامية وقعت في ارياض مختلفة منذ وعد بلفور ، وتسير الى ابطال مجهولين بذلوا دماءهم هينة رخيصة ، وضاعت بطولتهم في خضم النسيان ، حتى كشف عنها الاستاذ كامل ، وهو يبحث عن قصيدة غائبة ، او مرثاة مجفوة في بطون الاسفار .

والبحث عن قصائد النكبة كان مشكلة كبيرة حقا ، لان مئات الجرائد والمجلات في الشرق العربي بجمهورياته وممالكه واماراته وفي المهجر الامريكي قد اتخمت بما اوحته المأساة لمئات الشعراء او آلافهم ، هذا غير المؤلفات الخاصة القائمة بذاتها ، التي تصف المحنة في ملحمة او مسرحية او رواية ، وغير ما اذيع في الاذاعات العربية دون ان يسجل في مجلة او كتاب ! كل ذلك قد ألزم المؤلف ان يبحث عن عناوين الشعراء في الشرق والغرب وان يراسل الكثيرين منهم ليقف على ما نظموه ، وقد يتابع الرسائل مثنى وثلاث ورباع لشاعر واحد علم عن انتاجه دون ان يشهد وثيقته ! ولولا صبره البالغ ما استطاع ان يواصل البحث في شعاب متفرقة متباعدة حتى اهتدى الى كنز حفيل !

وبعد ان جمع ما شاء الله له ان يجمع ! قرأ ودرس ثم رشح واختار ، ووضع التخطيط الادبي لمنهج الكتاب ، ولو ترك لنفسه العنان لكانت رسالته في مجلدات ولكنه كطالب يمتحن في رسالة جامعية ، قد وضع نفسه في اطار خاص ، بحيث لم تستطع اللجج المتراكمة ان تطغي بعبابها الدافق على منهجه ، ولئن اغفل بعض الشعراء المجيدين فهذا لا يعيب رسالته في شيء ، كما لا يجوز ان يغضب بعض هؤلاء ممن اعلنوا عتابهم للكاتب في بعض الصحف ، لان الرسالة ليست جمعا تحتشد فصوله دون خطة ، ولكنها تنتخب من الشعر ما يمثل اتجاها خاصا يعنى الكاتب بابرازه ، وقد كان الاستاذ كامل واسع الصدر في تقبل جميع المذاهب الشعرية من كلاسيكية ورومانتيكية، ومن واقعية ورمزية وخيالية ، وحسبه ان يشير الى خصائص كل مذهب في تعليق وامض ، تاركا للقارىء ان يشبع نهمه الادبي من طعام تزدحم به المائدة ، فاذا رضي عن لون وجد طلبته ، واذا عاف لونا ففيما رغب المشبع والمستمتع والارتواء !!

يضم الباب الاول من الرسالة حديثا تحليليا عن الصهيونية العالمية والثورة العربية ووعد بلفور وكفاح فلسطين القومي في الدور الاول من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٣١ وفي الدور الثاني من سنة ١٩٣٢ – سنة ١٩٣٧ وفي الدور الثالث وما يليه من الادوار حتى يصل الى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ليمهد بذلك لما قيل في هذه الادوار ذات الحوادث الجسام من حار الشعر ودامعه ، ويتحدث عن شعراء كل قطر على حدة ، فقسم لشعراء مصر واقسام اخرى لشعراء سورية ولبنان والعراق واليمن والحجاز والكويت والبحرين وحضرموت والسودان وليبيا وتونس والجزائر ومراكش والمهجر مبينا اثر هذا الشعر في كفاح عرب فلسطين فاذا فرغ من هذه النماذج تحدث حديث الناقد عن الموضوعات والافكار والعواطف والصور والاساليب ، وقام بدراسة مقارنة بين الاقطار العربية اعلن فيها بكل صراحة محمودة ان شعراء مصر الكبار في الدور الاول لم يحسوا بالنكبة احساسا حارا ملتهبا فحافظ وشوقي والعقاد والكاشف ونسيم والهراوي والقاياتي والجارم وغيرهم لم يكونوا عندما يتوقع لهم كل عربي من انفعال ! والحق ان الدور الاول لم يكن يشير في منطق هؤلاء بجدية الصهيونية وشرها ، وكل ما خيل لهم ان شراذم مستحقرة من اليهود تتمادى دون نتيجة محتومة ! ولو فطنوا الى الخطر كما فطن اليه الشاعر الكبير الاستاذ احمد محرم ما وصموا اليوم بالتقصير ! ومن عاش منهم حتى يتبين خطر المأساة تفجر خاطره بساخن الشعر ودامعه كالعقاد والجارم ، ثم أشاد بشعراء سورية اذ اعلن انها تقف في مقدمة الاقطار العربية التي هزتها المحنة هزا عنيفا في دورها الاول ، وذكر من بين شعرائها خير الدين الزركلي وبدوي الجبل وعمر ابا ريشة وامجد الطرابلسي ثم ثنى بلبنان فجعلها تالية لسورية وذكر من رجالها فؤاد الخطيب والحوماني ومطران وثلث بالعراق .. ومهما يكن من هذا التفاوت لقد صارت البلاد العربية جميعها بعد هول المحنة في مستوى واحد من المصيبة حتى ليتعذر على ناقد ما ان يلمس تفاوتا ضئيلا في عمق الاحساس ولوعة الانفعال ، وان لمس تفاوتا بالغا في القدرة الفنية والطاقة الشعرية والاتجاه الادبي ، فذلك ما لا يمكن انكاره في رسالة ادبية تعتمد على الدرس والتحليل .

وقد اكرمني الاستاذ كامل فاختار بعض قصائدي في ما اختار ، ولسوء حظي ان الذي وقع في يده من انتاجي قد نظمته وانا طالب ، وتاريخه في المجلات ينبىء عن ذلك ، فاذا كنت الآن غير راض عن اتجاهه الفني ، فهذه سنة الحياة اذ ان ارتقاء الذهن بتوالي الايام هو الذي يباعد بين الاثر وقائله حتى ليقف منه موقف التجريح والملام ، وهو تجريح رحيم عاطف ، واخال بعض من اختار لهم الاستاذ يشاركونني هذا الاحساس !

وقد رأيت في مجال الحديث عن هذه الرسالة القيمة ان اترك الاستاذ كامل السوافيري يتحدث عن منهجه اذ يقول في مقدمة الرسالة : «وعلى الرغم مما قرأت من مصادر لا استطيع ان ازعم انني قرأت كل الشعر العربي الحديث الذي استوحى محنة فلسطين ، او استوعب جميع مادته ، ولم تفتني منه قصيدة ، ولم يند عني نص ، فهناك من غير شك نصوص لم يتح لي الاطلاع عليها وبخاصة في المغرب العربي وفي ليبيا ، ولكني اقرر حقيقة لا مجال للشك فيها ، وهي انني اطلعت على اكبر مقدار من الشعر الذي استوحى فلسطين خلال زمن بحثي ، وان حظ شعر ابناء فلسطين كان اوفر واكبر من حظ شعر ابناء الاقطار العربية ، واني بذلت جهودا مضنية في جمع مادة هذا الشعر ، واخذت اجيل النظر وامعن الفكر فيما جمعت درسا وتحليلا وموازنة ونقدا واحتكاما الى ذوقي الادبي الخاص ، ومن خلال هذه الدراسة توصلت الى اصدار احكامي على الشعر .

ودراستي للمادة الشعرية وذوقي الادبي الخاص هما اللذان اوحيا الي بتخير النصوص التي عرضتها على اعتبار انها اقوى القصائد واجودها واصدقها تعبيرا عن عواطف الشعراء واحساسهم بالمحنة ، وانفعالهم بجوانبها ، ولطالما امضيت الساعات ، وانا اوازن بين طائفة من القصائد تناولت حادثا سياسيا بذاته او جانبا من جوانب المحنة لاختيار اجودها، وكنت اقف هذا الموقف نفسه من الشاعر الواحد لاختار اجود ما قال اذا كثر عدد القصائد التي استوحى فيها المحنة .

وكنت اجعل الشعر الجيد في نظري هو الهدف لا الشاعر ، ولذلك لم تدفعني شهرة الشاعر وحدها لاختيار شعره ، ولم يمنعني عدم شهرته عن الاختيار له ، ويصدق هذا على شعراء فلسطين كما يصدق على شعراء الاقطار العربية » .

هذا منهج الاستاذ ، وقد طبقه كما استطاع ، وانا لنرجو ان تنال رسالته الجامعية بعد طبعها الانيق ما هي جديرة به من التقدير والذيوع.

الفيوم : دار المعلمات **محمد رجب البيومي**

احمد زكي الملقب بشيخ العروبة

تاليف انور الجندي – ٣٠٨ صفحة – سلسلة اعلام العرب – مطبعة مصر بالقاهرة

في رحلة طويلة خلال البحث عن « معالم الادب العربي المعاصر » منذ فجر النهضة الفكرية العربية التي بدأت قبل منتصف القرن التاسع عشر حتى اوائل الحرب العالمية الثانية (١٨٤٠ – ١٩٤٠) تبدو معالم شخصيات متعددة من اعلام الفكر والوطنية والكفاح السياسي والاجتماعي والادبي.

هكذا بدأ الاستاذ انور الجندي كتابه ليتحدث عن احمد زكي الملقب بشيخ العروبة ويزيح الستار عن هذه الشخصية العربية التي اسدل عليها ستار من النسيان خلال ربع قرن مضى من السنين ، ولعمري ان المؤلف قد بذل جهودا جبارة في التحقيق والتنقيب وقد امضى اكثر من سبع سنوات حتى تمكن ان يجمع اشتاتا من المقالات المبعثرة في بطون المجلات والصحف ليصنع منها كتابه هذا الذي وضعه بين ايدينا والذي سلط انواره الكشافة ليزيح العتمة التي اغرقته في لججها طيلة الخمسين عاما الماضية .

والمؤلف بالرغم من قلة المصادر التي لديه فانه لم يترك كبيرة وصغيرة الا واحصاها وقد كان منصفا حقا في كتابه هذا ، اذ ذكر محاسن الرجل ومساوءه ، فقد انصف احمد زكي بانه بذل جهده وماله في خدمةالعروبة والاسلام وكان الى جانب مصطفى كامل يؤيده في مواقفه وفي خطبه واقواله واعماله ، حتى اذا ما ازور الخديوي وتخلى عن مصطفى كامل وسار بركاب الانكليز واخذ ينكل بالقوى الوطنية كالحزب الوطني نرى الشيخ احمد زكي يقلب ظهر المجن ويسير في ركاب الخديوي ويميل نحو الانكليز لان كفتهم اصبحت هي الراجحة ، ويقول المؤلف في صحيفة (٢٢٥) « وكان احمد زكي قد جرى في هذا الخط الجديد مع الخديوي الذي افسح له المجال الى تمثيل مصر في المؤتمرات الدولية وحقق له رغبته في العمل الفكري الذي احبه ... الخ ... »

لقد بذل احمد زكي جهودا مشكورة في مؤتمر المستشرقين فقد مثل الحكومة المصرية وقتذاك في اربع مؤتمرات عام ١٨٩٢ في لندرة و ١٨٩٤ وفي صيف ١٩٠٢ في همبورج و ١٩١٢ في اثينا ، وكان يخطب ويتحدث في هذه المؤتمرات وقدم مخطوطات قديمة منها عشرة كتب قديمة نقحها وصححها ، وستة كتب من تاليفه .. وكان موضع تقدير العلماء والباحثين في هذه المؤتمرات حيث كانوا يحيطون به ويوجهون له مختلف الاسئلة كما ذكر المؤلف الفاضل في صحيفة ١٠٤ .

والشيء الذي استرعى انتباهي في هذا الكتاب هو ان المؤلف في صحيفة ٢٧ قد شط عن الموضوع وراح يتكلم عن اخ احمد زكي وعن نزاهته وعن استقالته الخ ... مما هو خارج موضوع هذا الكتاب ، ولعل السبب الذي حدا بالمؤلف الفاضل الى ذلك هو ان اخاه (محمود باشا) هو الذي كفله وتولى تربيته منذ الصغر فراح يسرد لنا بعض مآثره ليدلنا على ان احمد زكي قد تأثر بتربية اخيه الاكبر الذي يزيده بثلاثة عشر عاما ، ولا ادل على ذلك انه كان يكن له الود والاحترام والتقدير وينعته بقوله : (والدي الشقيق) .

ذكر المؤلف في اكثر من موضوع بان احمد زكي لامر ما يكتم انه فلسطيني الاصل ولم يخبرنا عن السبب في ذلك ، وكان لا بد للمؤلف ان يدلي برأيه في هذا الموضوع ويستنتج مما قرأه والم به من مواضيع عدة عن السبب الذي حدا به ان ينكر اصله في حياته .

ويستبان لنا مما قرأناه في هذا الكتاب بان احمد زكي قد اصيب بمرض نفسي هو حب الظهور ، ولا ادل على ذلك من سخريته بالآخرين كالدكتور زكي مبارك وغيره كما ذكر المؤلف في صحيفة ١٩٤ وقوله في صحيفة ١٩٢ « عني وعني وحدي خذوا النبأ الصادق فعندي وعندي وحدي الحجة الصحيحة والبرهان الناطق :

ودع كل صـوت غير صوتي فانني   انا الطائر المحكي وغيري هو الصدى

وقد كرر المؤلف هذا البيت في صحيفة ٢٧١ ايضا .

ومما يؤيد مـا ذهبنا اليه هو ما ذكره المؤلف في صحيفـة (٢٣٢) حيث قال : « ولقد كان سعي (احمد زكي) في سبيل التبريز والشهرة دافعا اياه الى اندفاعات سريعة عاطفية وعصبية متعددة شمالا ويمينا ، ارضاء لرغباته وتطلعا الى الحديث عنه .

ومن محاسنه انه يرجع الى الخطأ ويعترف فيما اذا اخطأ ويعتبـر ذلك فضيلة كما جاء في صحيفة (١٨٨) وهو عند الدكتورين طه حسين وزكي مبارك اول مصري عرف بالبحث العلمي .. صحيفة (١٨٦) . وقد عني باقتفاء الكتب النادرة كما هو شأن البحاثة العراقي الاستاذ عباس العزاوي المحامي الذي تعتبر مكتبته ثالث مكتبة بعد مكتبة المرحوم الاب انستاس الكرملي . ومن اعمال احمد زكي العظيمـة التي يسجلهـا التاريخ بمداد الفخر انه اوقف مكتبته للخدمات العامة في حياته وبذلك ضرب اروع الامثال في التضحية ونحر حب الذات في سبيل المصلحة العامة وعسى ان يقتدى به استاذنا عباس العزاوي امد الله فـي حياته بالمرحوم احمد زكي فيوقف مكتبته ليفترف من مناهلها العلماء والادباء .

ومما يؤآخذ عليه المؤلف بعض التكرار ونـذكر على سبيل المثال لا الحصر فقد جاء « عني وعني وحدي خذوا الخبر الصادق » في صحيفة (٣٩) وجاء نفس الكلام في صحيفة (١٩٢) وكرر في صحيفة (٢٧١) .

ذكر المؤلف في صحيفة (٥٠) ان احمد زكي نفى ان تكون رسائل اخوان الصفا من تاليف المجريطي ولكنه لم يذكر من هم هؤلاء اخوان الصفا الذين اختلف المؤرخون في رسائلهم والذي اعرفه ان هؤلاء جماعة ظهروا في القرن العاشر واتخذوا البصرة مقرا لهم ولهم ٥٢ رسالة من مؤلفيها ابو سليمان المقدسي ، وابو حسن الزنجاني ، والنهر جوري ، والعوفي وزيد بن رفاعة .

جاء في صحيفة (٢٢٧) صدر البيت :

« ان الرزازين لما قام قائمها » والصحيح :

ان الرزازير لما قام قائمها   تصورت انهـا صارت شواهينا

وفي الختام نقول ما قاله (مرجليوث) للكاتبة مي زيادة عندما زارته في اكسفورد « ان حياة زكي باشا متشعبة مبعثرة يعوزها التنظيم » .

ان بعض الهنات الهينات التي وقعت في ثنايا هذا الكتاب لا تحط من قدر هذا السفر العظيم الذي اتحفنا به مؤلفـه الفاضل الاستاذ انور الجندي وقد استطاع بالجهد الشاق ان يحقق حياة هذا العالم النابه لوجه العلم والذي يستحق عليه الثناء لانه موضع الاعجاب والتقدير .

بغداد   عبد الخالق عبد الرحمن



● الفداء او الشهيد سعيد عقل – تأليف فاضل سعيد عقل – مصمم الفلاف ميشال ح. عقل – ٢٢٤ صفحة – منشورات العقل (؟) – مطابع المتني بفرن الشباك (؟)

● رامونا – قصة – تاليف هيلين هنت جاكسون – ترجمة حسـين القباني – مصمم الفلاف مدحت سعد – ٦٧٠ صفحة – حجم كبير – منشورات دار النهضة العربية بالقاهرة – مطبعة المعرفة (؟)

● اصداء من المحكمة – أشرف على تحريـره وليام م. دافنيورت ، اشرف على ترجمته وقدم له حسن جلال العروسي – مصمم الفـلاف احمد منيب – ٣٢٨ صفحة – حجم كبير – منشورات مركز كتب الشرق الاوسط بالقاهرة – مؤسسة طباعة الالوان المتحدة بالقاهرة .

● الشئون المنزلية للناشئات – تاليف ايفيلين جونز وهيلين برنهام – ترجمة اسعاد جودة – مراجعة نظيرة نقولا – تقديم دولت الصدر – مصمم الفلاف طلعت المصري – ٥٠٠ صفحة – حجم كبير – منشورات مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة – دار ومطابع الشعب بالقاهرة .

● التخطيط المشترك بين المعلم والتلميذ – تأليف لويز باريش وايفون واسكين – ترجمة عنايات عبد العزيز فريد – مراجعة الدكتور وهيب سمعان – مصمم الفلاف عاطف رزق الله – ٢٨٠ صفحة – مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة – (لم يذكر اسم المطبعة) .

● سنترال التليفونات – تاليف نومي بوكهيمر – ترجمة احمد كمال عواد – مراجعة وتقديم احمد زكي محمـد – ٥٢ صفحة – مصور – منشورات مكتبة النهضة المصرية بالقـاهرة – دار القومية العربيـة للطبـاعـة (؟)

● بذور الحب والخير – قصة – تأليف حسن حمام – ١٧٢ صفحة – منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت – (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الحب والادب – تاليف عبد الوهاب ملا – الفلاف بريشة المؤلف – ٢٦٤ صفحة – مطبعة دار الفكر بدمشق .

● فن الكاتب المسرحي : للمسرح والاذاعة والتليفزيون والسينمـا – تاليف روجر م. بسفيلد (الابن) – ترجمة وتقديم دريني خشبة – مصمم الفلاف محمد سليمان التهامي – ٤٦٢ صفحة – حجم كبـير – منشورات مكتبة نهضة مصر (؟) – دار القومية للطباعة (؟)

● مختارات من القصص القصيرة – تأليف فرانك ر. ستوكتون – ترجمة صبحي الجيار – مصمم الفلاف محمد سليمان التهامي – ٢٦٨ صفحة – منشورات دار النهضة العربية بالقاهرة – مطبعة المعرفة (؟)

● التقرير الى آباء التلاميذ – تأليف روث سترانج – ترجمة الدكتور محمد خليفة بركات – مراجعة وتقديم محمد السيد روحه – ٢٢٨ صفحة – منشورات دار النهضة العربية بالقاهرة – مطبعة لجنة التـأليـف والترجمة والنشر بالقاهرة .

● مزيد من البحوث المتعة للعلماء الصفار – تأليـف جورج بار – ترجمة الدكتور انور محمود عبد الواحد – ١٨٨ صفحة – منشورات مكتبة نهضة مصر (؟) – المطبعة العالمية بالقاهرة .